

إحسان عبد القدوس

أيام شبابي

مقـــدمة

أيـــام شـــبابى

أحب ما أعتـز به هو أن لى دائما قراء فى سن الصـبـا .. السن التى تتـأرجح بين العـاشـرة والعشـرين.. وكل جيل منهم يكبر ويصـبح جيل زوجات وأمهات وآباء.. وكلما الـتقيت بأحد أفراد الجيل الذى كبر أجده لا يحدثنى عما يقرأه لى الآن بل عما كان يقرأه لى فى صـباه ، كأن مـا قرأه هو جزء مـن ذكرياته التى لا ينساها ، وعنصـر من العناصر التى أقام عليـها شخصـيته وتكوينه الفكرى.

وهذا ما يجعلنى أحـس بأنى أحمل نحوهم مسئـولية أقرب إلى مسئـولية الأب.. بل إنى غالباً ما أخاطبـهم بلهجة وأسلوب الأب وأناديهم .. ابنتى.. أو ابنى.. وهو ما تعترض عليه زوجتى لأن بين بناتى الآن أمـهـات لهن أحـفـاد.. وبين أبنائى رجـال يخطون نحو سن المعـاش.. ولكن زوجتى تعذرنى عندمـا تقدر اعتزازى بأن أكون أباً فـكرياً وروحياً لأجيال بعضـهـا يجمعنى بها نفس الجيل وبعضها أجيال جاءت بعدى.

والأب يفرح بنجاح أولاده.. وأنا أفرح عندما ألتقي بزوجة ناجحة وأم ناجحة تحدثني عما كانت تقرأه لي قبل أن تتزوج وقبل أن تصبح أما.. وتروي لي ضاحكة كيف كانت تشتري روز اليوسف من مصروفها الخاص، وتقرأها سراً حتى لا يضبطها أبوها أو أمها.. كان الجيل العتيق يحرم قراءة روز اليوسف على الأولاد والبنات حتى لا يعيشوا مع فكري ويتأثروا به.. ولكن سنة التقدم والتطور هي دائماً أقوى من أن يصدها القدامى المتجمدون فلم يستطيعوا أن يحرموا الجيل الجديد من قلمي.. وكنت أنا دائما مطمئناً إلى أني سأصل إلى قرائي.. حتى عندما كانت تشتد الحملات ضدي وضد ما أكتبه من دعوات وآراء اجتماعية وسياسية ، كنت مطمئناً إلى أني سأجد قرائي ولو بعد أن أموت، ككثير من الكتاب الذين لم يصلوا إلى قرائهم إلا بعد أن ماتوا.

والحمد لله فإني لم أنتظر الموت حتى أصل إلى قرائي !!

وقد سألت قارئتي التي أصبحت زوجة وأماً :

– هل تسمحين الآن بعد أن كبرت وتحملت مسئولية الأم.. هل تسمحين لأولادك وبناتك بأن يقرأوا لي.

وقالت وهي تقبلني بفرحتها :

– طبعاً .. إنك لا تدري ماذا أعطيتني .. لقد أعطيتني صوراً كاملة صريحة من الحياة حتى أختار بينها.. وبذلك أغنيتني عن أن أعرض نفسي للتجارب.. علمتني التجربة قبل أن أخوضها وأعرض نفسي لتحمل فشلها.. ولذلك لم أفشل أبداً .. ولا أريد لبناتي وأولادي الفشل.. ثم لا أريد أن يقرأوك بعيدا عني كما كنت أقرؤك بعيدا عن أمي وأبي.. ثم إني سيدة مدبرة ولا أريد لأولادي أن يشتروك من مصروفهم الخاص.. كلنا الآن نقرؤك

فى كتاب واحد أو فى جريدة واحدة.

وليس معنى ذلك أن كل أبنائى من قراء القصص والخواطر الاجتماعية .. فقد كان فكرى السياسى أيضا يعتبر محرما.. وهو فكر كما أحب أن أصوره يرتفع عن الواقع فى سبيل التطلع إلى المستقبل.. ولذلك فقد كان دائماً فكراً مرفوضاً من الواقعيين أو من الذين يكتفون بمسئولية الواقع ويدافعون عنه.. كان فكراً مرفوضاً قبل الثورة ثم ـ رغم أنه ساهم فى إطلاق الثورة ـ أصبح فكراً مرفوضاً أيضاً بعد الثورة.. وقد تعرضت لكثير من الأحداث فى سبيل هذا الفكر.. تعرضت للاغتيال أربع مرات. وسجنت ثلاث مرات.. وكان ما يعوضنى دائماً أن هذا الفكر أقنع الكثيرين من الشباب، وبعضهم تخلى عنه بعد أن تعدى سن الشباب، والبعض الآخر هم الذين ظلوا يشاركوننى الفكر السياسى مهما استمر بهم العمر، وهؤلاء هم الأكثر نجاحاً فى الحياة السياسية لأنهم لم يتعرضوا لتقلبات الواقع، ولم يعتبروا أن كل أهداف الفكر السياسى هو الوصول إلى مراكز ووظائف الدولة.

والتقى بالقراء السياسيين كما ألتقى بقراء الأدب.. وأشعر نحوهم بنفس المسئولية.. مسئولية الأب الفكرى ، وإن كنت بالنسبة لكثير منهم أشاركهم الأخوة الفكرية لا الأبوة.. وكنت دائما أفرح بهم وبمواقفهم ثم يحدث أن يصل أحدهم إلى منصب من المناصب السياسية.. رئيس جمهورية أو وزير أو.. أو.. فيحدث نوع من التباعد بيننا ، لا تعمداً ، ولكن لأن فكرى السياسى دائماً أبعد عن المسئولية التنفيذية التى تفرضها المناصب ويفرضها الواقع.



ولا شك أن أحد الذين عاشــوا صباهم مع فكرى وقلمى هو الأســتاذ أحــمـد يحيى فـقـد كان هو صــاحب فكرة نشـر هذا الكتاب.

جاءنى يطلب نشر كلمات وخــواطر فكرية سبق أن نشرتها فى روز اليوسف منذ أكثر من عشرين عاماً.

كيف تذكر هذه الكلمات ؟

أنا نفسى قد نسيتها.

ولكنها نعمة أن تحتفظ بقرائك منذ سن الصبا. فأحمد يحيى وهو الآن رجل ناجح صاحب دار نشــر ناجحة.. وليس مـجرد صاحب دار ولكنه أيضاً صــاحب أفكار فى تحديد الكتاب الذى يختاره وينشره.. وهو الآن يقرأ لى وهو فى هذه السن الكبيرة ولكنه لم ينس ما كان يقرأه لى وهو فى السن الصغيرة.

وقـد تعودت أن أتهم نفـسى بعـدم قدرتى على اســتغـلال إنتاجى استغـلالا يحتفظ به أمام القراء جيــلا بعد جيل، ولذلك لم أفكر فى جمع هـذه الكلمات والخواطر فى كـتاب.. ربما لأن تفـرغى لروز الـيـوسف كـان يدفـعنى إلــى الإحــســاس بأن روز اليوسف هى كتــاب دائم.. كل من يريدنى يبحث عنى فى روز اليوسف.. ولـكنى هاجرت من روز اليوســف وأصبح من يريدنى لا يدرى أين أنا.. فــى دار الهلال أم فــى أخبــار اليــوم أم فى الأهرام أم .. أم.. قلم يحـمل عبء أفكارى ولا يدرى أين يلقى بها.

إلى أن أنقذنى أحمد يحيى.. وقام بجمع ما كتبته وأنا أعيش العشرينات والثلاثينات من عمرى.

وكنت أدهــش وأنا أراجع مـــا تجـمـع.. ودهــشــتى تـنبض

بالفرحة كأني أرى صورتي وأنا صغير.. ولكني لم أكن صغيراً بالنسبة لنفسي.. فكل الأفكار التي سجلتها وأنا في هذا العمر البعيد لم تتغير بعد أن وصلت إلى العمر الذى أنا فيه.. عمر الستين.. وليس معنى ذلك أنى لم أتطور.. لا.. ولكن أفكارى ولدت معى وهى ترفض الاستسلام للواقع متطلعة إلى المستقبل.. ترفض القديم.. وترفض التقيد بالتقاليد.. وترفض الخوف الاجتماعى.. ولذلك.. فمهما طال الأمد عليها فهى لا تزال أفكاراً جديدة.

وهذه المجموعة من الكلمات التى يضمها هذا الكتاب معظمها كلمات حول المجتمع وحول التحليل العاطفى وقد دفعتنى هذه المجموعة إلى أن أراجع ما كنت أكتبه تعبيرا عن فكرى السياسى أيام شبابى.

غريبة !!

إن فكرى السياسى لم يتغير هو الآخر حتى اليوم.

ربما لأن كل ما اقتنعت به سياسياً فى شبابى وعشت مقتنعاً به لم يتحقق حتى اليوم.

وبعد أن تتحقق الأحلام يبدأ الفكر فى البحث عن أحلام جديدة.

إنى فرح بهذا الكتاب.

لأنه نبضات أيام شبابى.

إحسان عبد القدوس

صناعة الإنسان

إننا نحاول أن نصنع الإنسان.

وأصعب مهمة تواجه المفكرين عندنا هى صناعة الإنسان

□ وصناعة الإنسان، كأى صناعة أخرى، تبدأ بتجميع المواد الخام، ثم تنظيفها وغسلها مما علق بها من الأتربة والمواد الغريبة ثم صهرها، ثم تشكيلها فى الأداة التى نريدها والمواد الخام فى الإنسان هى : الأفراد.

- والأفراد فى حاجة إلى عمليات «غسيل مخ» من رواسب المعتقدات الخاطئة، والتقاليد المغلقة، والتفسيرات الدينية التى لا تتفق مع الفهم الصحيح للدين، والمذاهب السياسية الداخلية التى حاول الأجنبى أن يطمس بها عقولنا، ويقيم منها سجنا لتفكيرنا لا نستطيع أن نفر منه.

وبعد ذلك تأتى مرحلة الصهر.. أو مرحلة ملء «فراغ العقيدة».. أى أن نضع فى عقول الأفراد، فهما جديدا للحياة..

وأن نبصرهم بالطريق الذى يسيرون فيه.. وأن نضع لهم الدافع على العمل، والهدف الذى يعملون من أجله.. وهذه هى أصعب المراحل.

وهى مرحلة تقوم على دراسة مبادئنا، والنظريات التى وصلنا إليها، والفلسفة التى اعتنقناها.. ثم تعميق هذه النظريات، وتحليلها، والتبشير بها، وإيصالها إلى عقول الأفراد وإدخالها فى حياتهم اليومية وفى أسلوب تفكيرهم.

وبمعنى آخر.. أن نجعل من هذه المبادىء والنظريات وعيا سياسيا عاما.

ولا يكفى لكى نصنع الأفراد أن نجعل منهم مهندسين وعمالا وأطباء.. إن المهندس الذى لا يتمتع بوعى سياسى يصبح مجرد كاتب حسابات.. لا يستطيع أن يدفع الحياة فى البناء الذى يشرف على تصميمه، ولا يستطيع أن يجعل من هذا البناء قطعة من مستقبلنا السياسى والاجتماعى.

والطبيب الذى لا يتمتع بوعى سياسى لا يستطيع أن يساهم فى العمل الكبير الذى نقوم به.. إنه قد يستطيع أن يعالج مريضا، ولكنه لا يستطيع أن يشترك فى معالجة شعب من المرضى.

وأول خطوة يجب أن تتخذ لنشر الوعى، هى تعريف الأفراد ببلادهم.. فإن النظريات والمبادىء التى اخترناها تظل معلقة فى الهواء، إلى أن توضع على أساس واقع بلادنا الواقع كما هو .. بلا مبالغة.. وبلا تفخيم.. والواقع الصادق، فدراسة المجتمع، ودراسة الواقع، هى أساس الإيمان بأية نظرية أو مبدأ سياسى.

وقد قال نهرو إنه اكتشف نفسه عندما اكتشف الهند.

وسيكشف الأفراد أنفسهم، عندما يكتشفون بلادهم.. وواقعهم.



من الذى يقوم بنشر الوعى الجديد ؟

إن العبء الأكبر فى نشر الوعى، يقع على الجامعات والكليات النظرية فى الجامعات، قبل الكليات العملية.

ونحن منذ بدأنا حركة التصنيع، ونحن نتجاهل أهمية الكليات النظرية.. كلية الآداب وكلية الحقوق.. بل ننسى أهمية الدراسة النظرية كلها.

إننا فى اندفاعنا نحو التصنيع، لم ننس الزراعة.

وكذلك فى اندفاعنا نحو الدراسات العملية يجب ألا ننسى الدراسات النظرية.

لن يكفينا التصنيع، إذا نسينا الزراعة.

ولن تكفينا الدراسة العملية، إذا نسينا الدراسة النظرية.

والدراسات النظرية هى التى تعد الذين يصنعون الإنسان.. تعد الذين يبشرون بالوعى الجديد.. والأفكار الجديدة.. والمجتمع الجديد.. وهؤلاء لا نستطيع أن نصنعهم إلا فى الكليات النظرية.. فى كلية الآداب، وفى كلية الحقوق.. الخ..

وما أطالب به هو توجيه عناية خاصة إلى برامج الدراسات فى الكليات النظرية، بحيث نستطيع أن نجد بين خريجيها من يقوم بمهمة نشر الوعى الجديد.

وفى كل مكان نحتاج فيه إلى واحد من خريجى الكليات العملية سنحتاج فيه إلى واحد من خريجى الكليات النظرية..

واحـد يصنع البناء، ويـدير المصنع.. وواحـد يصنع الإنســان، ويدير التفكير.

وأكثر من ذلك.

إنى أطالب بأن تخـصص فى كل مـصنع حلقـة دراسيـة.. يجتمع فيها العمال والمهندسون والموظفون الإداريون ساعة فى اليوم وأن تحسب هذه الساعة ضمن ساعات العمل.. وأن يعين فى كل مـصنع واحد أو اثنان من الأسـاتذة المتخـصصـين فى العلوم السياسيـة والاجتماعية، يتوليـان إدارة الحلقة الدراسية والإشـراف على نشاطهـا، تمامـا كمـا يعيـن مهندسـو المصنع وعماله وإداريوه.

إننا بذلك نستطيع أن نقيم صناعة الإنسان.

بدأت الحملة من جديد على الشباب وبدأت الاتهامات تنهال عليه.. الميوعة.. والانحلال.

ويبدو أن هذه الحملة تعتمد على مظهر الشباب لا على حقيقته.. الشاب الذى يرتدى قميصا وبنطلونا، ويفتح صدر القميص ويدلى البنطلون إلى أسفل خصره.. هو شاب مائع.. والشاب الذى يرقص هو شاب بايظ والشاب الذى يحادث فتاة على شاطىء البحر هو شاب منحل.. و.. و.. وهذا حرام.

إن كل هذه مظاهر اجتماعية، وهى ليست مظاهر الشبان بل هى مظاهر العصر.. مظاهر لا تدل على واقع الشباب ولا حقيقته.. إنما هى الطلاء الخارجى للمجتمع الذى نعيش فيه.

والصورة التى نراها اليوم للزعيم مصطفى كامل.. هى صورة شاب أنيق يميل طربوشه إلى جانب رأسه ويضع فى رباط عنقه دبوسا من الماس، ويرفع شاربه بالكوزماتيك،

ويمسك فى يده عصا أنيقة ورغم ذلك فلم يكن مصطفى كامل شابا منحلا ولا مائعا.

كان زعيما وطنيا استطاع أن يجمع كل الشعب وراءه.. إنما كان مظهره هو مظهر عصره.. مظهر الشباب فى عصره.

وأيزنهاور يرتدى قميصا ملونا.. الوانه فاقعة كأنها الصواريخ.. ورغم ذلك فأيزنهاور ليس شابا مائعا.

إنه ليس شابا على الإطلاق.. إنه عجوز جاوز السبعين ولكن هذا الرداء هو مظهر من مظاهر العصر.. مظهر لا يقلل من قيمة أيزنهاور.. ولا يزيد منها.

وحتى ثلاثين عاما مضت.. كان الشاب الذى يرفع رأسه إلى نافذة بنت الجيران، يعتبر شابا منحلا.. ولكن بنت الجيران نزلت اليوم إلى الشارع، أصبحت زميلة للشاب فى الدراسة، وفى العمل تجلس بجانبه ثلاثة أرباع اليوم.. فأصبح من الطبيعى أن يرفع رأسه إلى نافذتها ويلوح لها بيده.. ويبتسم لها.. دون أن يكون شابا منحلا.. فهذا التآلف بين الجنسين، هو مظهر من مظاهر العصر.. هو المجتمع الجديد.

والرقص.. إن الرقص أيضا أصبح مظهرا اجتماعيا.. كثيرون لا يرقصون، ولكن كثيرين أيضا، يرقصون.. ولا يعيب الشاب أن يرقص ولا يزيده الرقص فخرا.

والذين يرقصون ليسوا الشباب وحدهم.. إنهم الرجال أيضا.. والعواجيز.. طبقة كاملة من أنجح رجالنا لا يجدون عيبا فى أن يراقصوا نساءهم، ويترددوا بهن على الحفلات الراقصة.. رجال أعمال ناجحون.. وكتاب ناجحون.. و.. و.. وإذا كان العواجيز يرقصون التانجو، والشباب يرقصون

الروك آند رول.. فليس هذا دليـلا على أن العواجـيز أعـقل من الشباب.. إنهم فقط أقل نشاطا، وأضعف أجساما.

وأنا لا أنفي أن هـناك انحـلالا.. وجـرائم.. ولـكن يجب أن نفرق بين الانحـلال، وبين مظاهر العصر.. بين الجـريمة وبين القـمـيص المفـتـوح، والرقص والاخـتـلاط علـى شـواطيء الاسكندرية.. ويجب أن نعطي شبابنا حقه.

إن شباب اليوم خير من شباب الأمس.. هذه هي الحقيقة.

وشبـاب اليوم يجند كله في الجيش، ولـكن ليس معنى هذا أن نطلب منه أن يعـيش حـياته كلهـا في طابور عـسكري وأن نحرمه من مظاهر عصره.. يكفي أن نطمئن إلى أن هذه المظاهر تضم تحتها فتيانا أقوياء الروح والعقل.

وشباب اليوم يحمل من المسئوليات أكثر مما حمله أي جيل مـضى.. إنه يحمل مـسـئوليـات لم تكن تخطر على بال جـيل مضى.. وقد اسـتطاع أن يحملها.. وراجعوا نتائج الامـتحانات وراقبوا الشباب في المصـانع.. وفي دوائر الأعمال.. ولا تكتفوا بمراقبـته في أوقـات فراغه.. حـتى تعرفوا لماذا أفـخر بشـباب بلدي.. ولعلكم لا تعلمون أن بطل الروك آند رول في الجامعة.. هو من أوائل الناجحين في كلية الهندسة هذا العام!

وبعد!..

إن الذين لا يطيـقـون الشـبـاب، هـم الذين لا يطيـقـون أن يعيشوا في هذا العصر.

حب النفس

إن حب النفس لا يعنى دائما (الأنانية) ولا يعنى (الفردية).. ولا يعنى (الانعزالية) إنك لن تستطيع أن تحب الناس إلا إذا أحببت نفسك أولا.. لو كرهت نفسك أو لو سخطت على نفسك فستكره الناس كلهم وتسخط على الناس كلهم.

وحب الناس هو حب الحياة.. وقد خلق الله الحياة لنحبها ونسعد بها.. والذى يكره الحياة ويتمنى الموت ليس زاهدا ولا يسعى للتقرب إلى الله.. ولكنه يتمرد على الله.. ويكفر بنعمة الله.

وحب الحياة هو أن تحب كل الناس الذين يكونون الحياة أخيارهم وأشرارهم.. وفقرائهم وأغنيائهم.. وأذكيائهم وأغبيائهم.. وهو حب نفسك لأنك جزء من الحياة.

إن الحب قوة.

والنفس التى تحب هى النفس القوية.

وصاحب النفس القوية لا يكره نفسه ولا يسخط عليها، بل

يعتز بها ويثق، ويغامر بها ويحمد الله عليها.



قلت هذا الكلام لنفسى وأنا أعانى أزمة نفسية أسميها «أزمة ديسمبر».

فى كل ديسمبر أصاب بهذه الأزمة.. أحس بشىء يكاد يخنقنى وأحس كأنى انهرت.. انتهيت.. احس بالسخط على نفسى، وكراهية نفسى وعدم الثقة فى نفسى.. كأنى فقدت كل آمالى ولم يعد لى باب ألجأ إليه إلا باب الموت..

لماذا.. لماذا فى ديسمبر بالذات !

ربما لأن ديسمبر هو نهاية العام.. هو الشهر الذى أضع فيه ميزانية نفسى.. هل كسبت أم خسرت.. هل فشلت أم نجحت.. ماذا صنعت بهذا العام من عمرى.. ماذا صنعت للناس ؟ ولنفسى.

وأتلفت خلفى، فلا أرى إلا أخطائى.. وقد تكون أخطاء صغيرة ولكنها تبدو كبيرة.. كبيرة تنتصب أمامى كالأشباح المخيفة.

واتلفت خلفى، فلا أرى إلا أخطائى.. وقد تكون قصيرة كأنى لم أتحرك.. كأنى لازلت مكانى.. وأعود أنظر أمامى، فأرى الطريق لا يزال طويلا.. طويلا مزروعا بالشوك، تعترضه الصخور.. وكثيرون قد سبقونى فيه.. بعضهم وصل إلى القمة وبعضهم قريب من القمة.. وأنا لا زلت مكانى وأصرخ : لماذا أعيش.. ما جدوى حياتى.. ما ذنبى لأولد.. لماذا خلقت ؟

وأثور على نفسى.. هذه النفس الضعيفة.. النفس القلقة..

الحائرة.. العاجزة.. وأكرهها.. أكره نفسى.. وأفقد الثقة فيها.

وعندما أكرهها، تتزعزع ثقتى فى الحب.. يخيل إلىّ أن الحب هو سبب ضعفى.. وأنى أصفح عن الذين يؤذوننى لأنى ضعيف، لا لأنى قوى يخيل إلى أن الحقد هو الذى يدفع إلى التقدم لا الحب ولا الصفح ولا التسامى.. وأن الشر هو سلاح الحياة لا الخير ولا التعفف.

وتشتد بى الأزمة وتمتد يد من صدرى وتقبض على حلقى ويد أخرى تخنق عقلى.. فأقضى ساعات طويلة وأنا أشبه بالمشلول.. لا أفكر ولا أعمل ولا أنطق ولا أنام.. فقط أتعذب.

وتنتهى الأزمة.. فأسقط ضعيفا كأنى مريض ومن خلال ضعفى أعود وأحاسب نفسى مرة ثانية كأنى اتشبث بالحياة وأتلمس لها الأسباب.

وفى المحاسبة الثانية تتكشف لى أشياء لم أرها فى المحاسبة الأولى.. إن حياتى ليست كلها أخطاء.. وأخطائى ليست كبيرة كما رأيتها لأول مرة.. وقد تقدمت فى الطريق.. تقدمت كثيرا.. وفى خطوات واسعة.. والطريق أمامى قد يكون مزروعا بالشكوك مليئا بالصخور ولكنه أسهل من الطريق الذى قطعته.. وأنا أسير فيه بحذاء متين يحمى قدمى، حذاء من تجاربى، ومن مبادئى ولا أحد قد وصل إلى القمة قبلى.. إن الذين وصلوا إلى القمة لا يراهم أحد.. لأن القمم فوق السحب.

هؤلاء الذين أمامى لا يزالون يسيرون هم أيضا يسيرون مثلى.. لا أحد يتوقف عن السير.

إن التوقف عن السير هو الموت.. أما الحياة فهى خطوات.. دائما خطوات.. ليس فى الحياة مكان للجلوس.. ليس لها قمة

تجلس عليها.. إن القمة وراء الحياة!

إن المحاسب المدقق هو الذى يراجع حسابه مرة واثنتين وثلاث مرات.. وفى كل مرة قد يكتشف خطأ فى الحساب.. وقد اكتشفت أنى ظلمت نفسى فى المحاسبة الأولى.

إنى لست ضعيفا.. ولست سيىء الحظ.. ولست فاشلا.. وقد صنعت بحياتى ما قدمته للناس ولنفسى وهذه الليالى الطويلة التى قضيتها فى مكتب لم تضع عبثا فقد ساهمت فى إسعاد الناس وإسعاد نفسى.. وعدت أحب نفسى.. وأثق بها.. وأحمد الله عليها.

وعندما أحببت نفسى، أحببت الحياة.. وأحببت مبادئى فى الحياة.. وأحببت الحب..

إن الذين يؤمنون بالحب، يؤمنون بالحياة.. ويؤمنون بأنفسهم.

إن الذين يدعون للحب يوفرون على الناس وعلى أنفسهم، عذاب الحقد، وعذاب الكراهية، والذين يدعون للسلام يوفرون على أنفسهم عذاب الحرب.

من الشباك إلى المحمول

منذ عشر سنوات كانت الفتاة المصرية التى تراقص رجلا فى محل عام حتى لو كان زوجها.. تعتبر زانية ويرجمها الناس بألسنتهم.



والآن أصبح من حق كل فتاة أن تراقص الرجل وأن تتمايل معه على أنغام التانجو والرومبا والمامبو.

وانعكس هذا التطور على موسيقانا، فأصبح عبدالوهاب وفريد الأطرش وعبدالحليم حافظ وهدى سلطان وشادية يغنون للراقصين والراقصات لا الجالسين على المقاهى والجالسات على الشلت.

وأصبحت الألحان تدور حول السامبا والووجى بوجى والبايو بعد أن كانت تدور حول الرصد والصبا والحجاز كار.

حدث هذه فى كل أنحاء العالم ودخلت موسيقى الزنوج الراقصة إلى إيطاليا وفرنسا والهند وبريطانيا وأصبحت شيئا لا يستغنى عنه كالحلل الإفرنجية والسيارات وفرش الأسنان.

كلها أشياء مستوردة من مدنيات أجنبية، ولا يفكر أحد فى محاربتها باسم الوطنية، كما لا يفكر أحد فى المطالبة بخلع الحلل الإفرنجية وارتداء الجبة والقفطان، أو بإبطال فرش الأسنان واستعمال السواك !!

ولكن هل معنى هذا أن هذه الألحان أصبحت تعتبر موسيقى مصرية صميمة؟!

أبدا.

إنها ستظل دائما موسيقى أجنبية، وسيظل اسمها دائما سامبا أو رومبا، مهما وضعنا عليها اسم عبدالوهاب.. وكما يكتب الترزى على دكانه «ترزى إفرنجى».

سيكتب عبدالوهاب على بطاقته «موسيقار إفرنجى»!

ومهما اقتبسنا من المدنيات الأجنبية فسيبقى فينا دائما شىء مصرى.. شىء يعبر عن الشخصية المصرية.. هذا الشىء لم تستطع موسيقانا أن تعبر عنه حتى اليوم.. وهذا الشىء هو الذى يحفظ الشخصية الموسيقية الإيطالية.. مثلا.. حتى اليوم رغم اكتساح التانجو والمامبو لشوارع روما ونابلى.

وما يسمونه «موسيقى شرقية» لم تكن أبدا موسيقى مصرية والتواشيح والبشارف والتحاميل ومخلفاتها ليس فيها شىء من مصر.. ليس فيها شىء يعبر عن فلاح مصر أو العامل فى مصر أو نساء مصر.. إنها موسيقى أجنبية أيضا دخلت مصر فى عهد الأتراك وتأثرت بها الطبقة التى كانت تجارى الأتراك فى مدنيتهم ثم تأثرت بها الطبقات الأخرى بحكم تقليدها لطبقة الأسياد.

والوحيد الذى استطاع أن يخلق موسيقى مصرية صميمة

هو «سيد درويش».. كان يرسم بموسيقاه صورة الغزل فى حوارى القاهرة بلحن «علـى أد الليل ما يطول».. ورسم صورة لشيالين محطة مصر بلحن واضح معبر لا يمكن أن يكون إلا لحنا مصريا.. ولحن الحشاشين، والعربجية.. و.. الخ.

كان سيد درويش الوحيد.. واستطاع عبدالوهاب أن يقترب منه كثيرا فى بعض أغانيه القديمة، ثم ابتعد عنه كثيرا بعد أن تخصص فى الألحان الراقصة.. كما اقترب منه كثيرا زكريا أحمد ومحمود الشريف وأحمد صدقى وإن كان كل من الثلاثة واقعا تحت ظروف نفسية عنيفة نتيجة اكتساح الألحان الأجنبية للشارع.

وبعـــد..

إنى واثق أن الموسيقى المصرية ستخلق قريبا وستطفو على السطح، فإن هذا المجهود العنيف الذى تبذله مصر لتكوين شخصيتها المميزة لابد أن ينجح أيضا فى خلق شخصية موسيقية مميزة.

من يخلق هذه الشخصية؟

من هو الفنان الذى سيرسم بألحانه صورة مصر؟

لا أدرى..

وكما انتظرنا طويلاً حتى ظهر شخص لا تعرفونه ليقود ثورة يطرد بها الملك التركى ويخلق شخصية الحاكم المصرى الصميم فسننتظر إلى أن يظهر الفنان الذى يقود ثورة ليطرد بها الموسيقى الشرقية ويضع مكانها الموسيقى المصرية.

ولابد أن هناك.. فى أحد أركان القاهرة أو إحدى قرى الريف، ولد العبقرى المنتظر!

الذين لا يعبدون شيئا

هل تعرف أن الفرق بين الفيلسوف والعالم، أو بين الفلسفة والعلم ؟!
إن العلم يسأل : كيف ؟

والفلسفة تسأل : لماذا ؟

هذا هو كل الفرق.

فإذا سألت نفسك كيف أتزوج ؟ فأنت عالم .. وإذا سألت نفسك لماذا أتزوج فأنت فيلسوف !!

فإذا كنت عالماً فستعتمد على حواسك فى البحث عن زوجة.. عينيك وأذنيك وعيون وآذان الآخرين الذين سبقوك فى الزواج وضعوا سلسلة من التجارب أما إذا كنت فيلسوفاً فإنك ستنطلق بعقلك وحده إلى أن تضع نظرية ثم قد تتزوج أو لا تتزوج .

وقد بدأ الإنسان عالماً يسأل نفسه كيف يحمى نفسه من الوحوش وكيف يتقى تقلبات الطبيعة وكيف يحصل على قوته

وكيف يدبر مليسه وكيف يتغلب على عدوه وكيف هذه هى التى أدت إلى اختراع الآلات وإلى اكتشاف القنبلة الذرية .

ثم بدأ الإنسان بعد أن توفرت له سبل الراحة وبعض أوقات الفراغ يسأل نفسه لماذا أجوع ولماذا المطر ولماذا البراكين ولماذا المرض ولماذا تهاجمنى الوحوش ... إلخ ..

وفى الوقت الذى توصل فيه العلماء إلى وسيلة لقتل الوحوش لأنهم عرفوا كيف يقتلونها توصل الفلاسفة إلى نظرية استئناس الوحوش لأنهم عرفوا لماذا تتوحش الوحوش !!

وفى الوقت الذى كان العلماء فيه يؤكدون أن الأرض منبسطة لأن حواسهم التى يعتمدون عليها فى إيجاد جواب كيف لم توصلهم إلى أكثر من ذلك فى هذا الوقت قام فيلسوف يؤكد أن الأرض كروية لأن عقله المنطلق وتسلسل لفظ لماذا فى ذهنه أدى به إلى اكتشاف حقيقة لا تدركها الحواس .

وعندما عجز العلماء عن إثبات نظرية كروية الأرض بحواسهم - فى ذلك الوقت - قتلوا الفيلسوف الذى نادى بها !!

وكان العلماء عندما يعجزون عن اكتشاف المجهول يعبدونه وبذلك نشأت عادة التزلف وإقامة الشعائر للمجهول .. عبدوا المطر عندما عجزوا عن السيطرة عليه .. وعبدوا الشمس والبراكين والوحوش .. وعبدوا البقر لأنهم عجزوا عن اختراع بقرة .. ثم عبدوا الملوك والأباطرة والأسياد لأنهم عجزوا عن السيطرة عليهم واختراع آلة تريحهم منهم !!

أما الفلاسفة فلم يعبدوا شيئاً لأنهم لا يسعون إلى السيطرة على المجهول ولكنهم فقط يحاولون مناقشته .

ونحن جميعاً إما علماء أو فلاسفة.. فالرجل العادى الذى يسأل نفسه كيف يصلح حنفية الماء هو عالم .. والرجل العادى الذى سيقول خليها على الله هو فيلسوف يؤمن بنظرية فلسفية معروفة تسمى الفلسفة الجبرية وهى نظرية ملخصها أن الكون كله بما عليه ومن عليه مسير ولا مخير.. وأن الإنسان يموت فى موعد محدد ولن يموت قبل هذا الموعد حتى لو ألقى بنفسه تحت عجلات قطار أو قفز من برج الزمالك .. وكل ناحية من نواحى الحياة تحتاج إلى تعاون الفلاسفة والعلماء .. تحتاج إلى لماذا وكيف حتى الثورات.. فلاسفة الثورة يسألون : لماذا الثورة ويصلون إلى جواب نظرى.. وعلماء الثورة يسألون : كيف تقوم الثورة ويقومون بها فعلا.

فجمال الدين الأفغانى وجان جاك روسو وماركس من فلاسفة الثورة وسعد زغلول وعبد الناصر من العلماء.

ثم هناك فرق بين المحيط الذى يمكن أن يعيش فيه الفلاسفة والمحيط الذى يمكن أن يعيش فيه العلماء.

الفلاسفة لا يعيشون ولا يظهرون إلا فى محيط الحرية المطلقة.. لأن العقل لا يمكن أن تحده حدود ولا يمكن أن ترسم له اتجاهات التفكير كما أن المنافسة الفلسفية لا يمكن أن تنتهى عند حد معين تقف عنده.. ولكن العلم الذى يعتمد على مشاهدات وتجارب الحواس، ويقبل أن يرسم له خط السير والعلماء يمكنهم دائما أن يغمضوا عيونهم عندما يؤمرون

ويفتحوها عندما يطلب منهم فتحها فلم يظهر مثلا فلاسفة في عهد هتلر إنما ظهر فيه علماء يبنون المصانع ويخترعون ويقيمون العمارات ويضعون الأسس الاقتصادية.. إلخ!

وفى أمريكا اليوم يحارب ماكارثى الفلاسفة بما فيهم شارلى شابلن بينما تفتح الحكومة خزائنها للعلماء.. والعالم الذى يفكر فى أن ينقلب إلى فيلسوف يقضى عليه كما حدث للعالم الذرى الكبير أوبنهايمر عندما بدأ يسأل نفسه لماذا يصنع القنبلة الذرية..

وبعد..

فعذرى فيما كتبته أنى كنت أقرأ هذا الأسبوع كتابا فلسفيا عن البراجماتيزم.. ولن أقول لكم ما هو هذا البراجماتيزم ولكن فقط أعيدوا قراءة السطور فقد تصلوا إلى ما أعنيه.

من هو الكاتب الحر..؟

اتفقت مع الأستاذ توفيق الحكيم أن نقيم ندوة، لنناقش موضوع : من هو الكاتب الحر.

وكان هذا الموضوع قد أثاره توفيق الحكيم نفسه في كتابه تأملات في السياسة.. الذي سيصدر بعد أيام فكتب يرسم صورة الكاتب الحر :

«الكاتب الحر الحق هو الذي يبقى بعيدا عن الحركات الحزبية والسياسية كي يستطيع في كل وقت أن يدافع بمنطلق الحرية عن المثل العليا للإنسانية ولا يؤازر المذاهب والأشخاص إلا على قدر احتفاظها بروح هذه المثل».

ثم يقول :

«الكاتب الحر في نظري هو الحكم النزيه في حلبة اللاعبين، هو الذي يحصي الأخطاء بغير تمييز ولا تحامل وهو الذي يفضح ستر الخارجين على أصول اللعب القديم».

وأخذت أنا أفكر في شروط ومواصفات الكاتب الحر!

وبدأت بأن ساءلت نفسي : هل استطعت أن أكون كاتبا حرا؟ فتبينت أن هذا التساؤل كان مدار حيرة نفسية كبيرة أضعت خلالها أجمل سنوات شبابي!!

كنت قد بدأت أعد نفسي للكتابة السياسية عقب تخرجي في كلية الحقوق وكانت السياسة في نظرى مجموعة من الزعماء ومجموعة من الأشخاص.. وكان هؤلاء يحجبون عني كل المثل العليا وكل المبادىء السياسية التي وعيتها.

كنت أؤمن بالمثل العليا وبالمبادىء المطلقة كالحرية، والحق، والشعب، ولكن كنت لا أراها، ولا أرى طريقا مرسوما في عقلي.. لم أكن أرى إلا هؤلاء الأشخاص وكان أقربهم إلى قلبي المرحومين : أحمد ماهر والنقراشي.. كنت مؤمنا بأحمد ماهر والنقراشي، مؤمنا بوطنيتهما ونزاهتهما وإن لم أكن متحمسا في إيماني إلى حد التعصب الحزبي.. ثم حدث في عهد وزارة النقراشي باشا أن كتبت مقالا أهاجم فيه اللورد كيلرن وأطالب بطرده من مصر.. وبعد ساعات من ظهور المقال قبض عليّ النقراشي وأودعني السجن وصادر المجلة.

وجلست يومها في الزنزانة رقم ٦ بسجن الأجانب أفكر لأول مرة تفكيرا جديدا عليّ وكأني صحوت بعد سبات عميق استغرق كل عمري.

ساءلت نفسي : هل سجنني النقراشي لأني هاجمت اللورد كيلرن ممثل الاحتلال وبطل حادث ٤ فبراير؟

وهل معنى ذلك أنه أقل وطنية مما كنت أعتقد ؟ لماذا ؟!

ربما كانت هناك أسباب وطنية تدعو إلى عدم مهاجمة اللورد!

ولكن.. لماذا أؤمن بالنقراشي أصلا.. ما هي الموازين التي أستطيع أن أحكم بها عليه؟ ما هي الحدود التي أستطيع أن اختلف معه عليها أو اتفق معه عندها.

عشرات الأسئلة.. كلها تعبر عن حيرة ذهنية عنيفة.. وتبينت خلالها أني لم أكن أحب النقراشي وأؤمن به إلا لأنه كان صديقا لمجلة روزاليوسف لأنه وقف بجانب والدتي السيدة فاطمة اليوسف عندما أعلنت معارضتها للوفد.. وتبينت خلالها أن ثقتي في وطنية النقراشي ونزاهته لا تكفي للإيمان به.. فالوطنية والنزاهة أمران مفروضان كمبادئ مطلقة، كوجود الله.. وكما أن الإسلام والمسيحية واليهودية لا تختلف في الاعتراف بوجود الله إنما تختلف في تعاليم هذا الوجود وفي الطريق إلى الله، كذلك الوطنية فقد يتساوى فيها الجميع من الزعماء والأحزاب، ولكنهم يختلفون في المبادئ والتعاليم التي تمليها عليهم وطنيتهم، ويختلفون في الطريق الذي تدفعهم إليه هذه الوطنية.

فلا يكفي أن أؤمن بالزعيم لمجرد أنه وطني، أو نزيه، أو حر.. بل يجب أولا أن أؤمن بمبادئ هذا الزعيم وأن أرى بوضوح الطريق الذي يسير فيه.

ولكن كيف أؤمن بمبادئ زعيم قبل أن يكون لي شخصيا إيماني الخاص.. إيمان واضح محدد؟؟

كيف أحكم على إنسان بأنه صادق الإسلام - مثلا - إلا إذا كنت أنا مسلما صادقا حتى أستطيع أن أعرف مدى إسلامه ومدى صدقه.. أو مدى بعده عن الإسلام ومدى كذبه ؟!

وخرجت من السجن لا حاقدا ولا موتورا ولكن حائرا أبحث عن إيماني السياسي كهذه البربرية التى خرجت إلى الغابة تبحث عن الله.. فى قصة برناردشو..

وتخبطت كثيرا فى حيرتي.. وتعبت كثيرا.. قرأت كل ما استطعت أن أقرأه من أول ماكيافيللى إلى كارل ماركس.. وجلست إلى كل من استطعت الجلوس إليهم من الزعماء ورجال السياسة.. واتصلت بأكثر الجمعيات الوطنية وكان بعضها فى أقصى اليمين وبعضها فى أقصى اليسار.

ومرت سنوات .. أكثر من أربع سنوات وأنا أعانى هذه الحيرة والشك يعصر رأسى ولكن ـ دون أن أتعمد ـ كنت أشعر بأن خيوط المبدأ الذى أؤمن به تتثمر فىّ خيطا بعد خيط إلى أن انبثق النور فى صدرى ووجدت إيمانى.

وعندما آمنت بمبدأ استغنيت عن الإيمان بالأشخاص.

أصبح كفاحى فى سبيل مبدئى هو كفاحى فى سبيل كل زعيم وكل شخص يؤمن بنفس المبدأ، حتى لو لم أكن أعرف هذا الزعيم أو هذا الشخص.

وأصبح الطريق أمامى واضحا مستقيما مستقرا، أسير فيه مع كل السائرين فيه وابتعد به عن كل الخارجين عليه.

كنت أبدو أحيانا أنى من أنصار هذا الزعيم أو ذاك لأن هذا الزعيم أو ذاك يسير فى نفس الطريق ثم أبدو وكأنى خصم لنفس الزعيم لأنه خرج عن الطريق.. وفى كلا الحالين لم أكن أتعمد أن أناصر أحدا أو أخاصم أحدا بل كنت فقط متمسكا بإيمانى مستقرا عليه..

ولكن هل معنى هذا أنى أصبحت كاتبا حرا؟

وهل معنى هذا أن الكاتب الحر هو الذى يؤمن بمبدأ معين ولا يؤمن بأشخاص معينين؟!

لا أدرى.. وربما أكون قد بدأت الموضوع من آخره وكان يجب أن أبدأ بالتساؤل : من الذى يحكم بأن الكاتب حر أو غير حر؟

هل هو الرأى العام ؟

وهل معنى هذا أن الكاتب الذى يرضى عنه الرأى العام يصبح كاتبا حرا حتى لو ضحى فى سبيل ذلك بمبادئه وإيمانه؟ وأن الكاتب الذى يثير سخط الرأى العام يصبح كاتبا غير حر حتى لو كان متمسكا بإيمانه ومبادئه؟

صدق توفيق الحكيم.. إننا فى حاجة إلى ندوة.

الحب أو المال

لى صديق من رجال الأعمال يسيطر عليه اعتقاد غريب فهو يعتقد أنه إذا نجح فى حياته الخاصة، فشل فى حياته العامة.. وبالعكس، إذا فشل فى حياته الخاصة، نجح فى حياته العامة.

وكل تجاربه فى الحياة تؤكد له هذا الاعتقاد : كان يعيش مع أمه.. وكانت أمه هى كل حياته، وكل سعادته، وكل راحته. وفجأة ماتت أمه.. ماتت فى حادثة.. وأحس أن حياته ضاقت حتى كادت تخنقه.. و.. وفى نفس الشهر الذى ماتت فيه أمه، ربح أول صفقة كبيرة فى حياته.. صفقة تقدر قيمتها بعشرين ألف جنيه.

ثم أحب فتاة.. وخطبها.. ثم اكتشف بعد أن خطبها أنها لا تحبه.. وفقدها، وفقد معها قلبه، وشخصه وثقته بنفسه.. وفى خلال شهور قليلة بعد هذه الصدمة، كان قد أسس شركة صناعية.. ونجحت الشركة.. وأصبح من كبار رجال الأعمال.

وهو يحب الآن فتاة أخرى .. يحبها ملء قلبه..

وأحبته.. ذابت في حبه.. ولأول مرة منذ وفاة أمه يشعر بالسعادة في حبه.. وقد بدأ في نفس الوقت مشروعا اقتصاديا ضخما.. وهو خائف.. خائف أن ينجح في حبه.. ويفشل في مشروعه.. وخائف أن ينجح في مشروعه ويفشل في حبه.

قلت له :

– أيهما تتمنى أكثر.. النجاح في الحب، أم النجاح في المشروع ..

قال :

– لا أدرى .. إنى أحيانا أرجو الله أن يحفظ لى حبى حتى لو فشل مشروعي.. وأحيانا أحس بإحساس خبيث أخجل منه.. أحس كأني أتمنى أن ينجح المشروع ولو خسرت في سبيله حبى وفتاتي.

ثم استطرد قائلا في حدة كأنه يثور على الله :

– ولكن لماذا لا أنجح في الاثنين.. لماذا يصر الله على أن يعطي الإنسان بيد ويأخذ منه باليد الأخرى يعطيه من السعادة بقدر ما يعطيه من الشقاء.. ويخصص له من النجاح بقدر ما يخصص له من الفشل.. إذا أعطاه مالا أخذ منه صحته وإذا أعطاه سعادة زوجية أخذ منه سعادته في عمله.

وقلت له :

– إنه ليس الله ولكنها عملية توازن وتعويض تقوم بها أنت داخل نفسك.. ففشلك في حياتك الخاصة يدفعك تلقائيا إلى محاولة النجاح في عملك لتعوض النقص الذى أصبت به، وكذلك فشلك في عملك يدفعك تلقائيا إلى محاولة النجاح في

حياتك الخاصة فتبذل مع زوجتك أو مع حبيبتك مجهودا، لم تكن لتبذله لو كنت ناجحا في عملك متفرغا له بكل أعصابك وعواطفك.

قــال :

- معنى هذا أن ليس هناك أمل في أن أنجح في الاثنين أي في حياتي الخاصة وفي عملي ؟

قلـت :

- هناك أمل كبير إذا استطعت أن توازن بينهما.

أن تعطي لحياتك الخاصة من اهتمامك وتفكيرك ووقتك بقدر ما تعطي لعملك..

وتذكر أن الحب يحتاج إلى ذكاء بقدر ما يحتاج إليه إنشاء مصنع.

قــال :

- سأحاول.

وقام وهو لا يزال يعتقد أنه لن يكتب له النجاح في حبه إلا إذا كتب عليه الفشل في عمله وبالعكس.

الوهم الكبير

سيدة كريمة مثقفة زارتنى فى مكتبى لتحدثنى عن الحب.

قالت :

- إن الحب وهم كبير ننساق إليه.. وتستطيع دائما أن تتغلب عليه بإرادتك!

قلت لها :

- إن معانى الحياة كلها أوهام وكلها تستطيعين أن تتغلبى عليها بإرادتك.. إن الوطنية وهم وتستطيعين بإرادتك أن تخونى وطنك والفضيلة وهم تستطيعين بإرادتك أن تنساقى وراء الخطيئة إنك بإرادتك تستطيعين أن تطفئى النور وتعيشى فى الظلام.

قالت :

- ماذا تقصد ؟

قلت :

إن رقى الإنسانية وتقدمها لم يتحقق إلا نتيجة محاولة الإنسان اللحاق بأوهامه.. وجميع أخطاء الإنسانية لم تقع إلا نتيجة هروب الإنسان من أوهامه ومحاولة التغلب عليها بإرادته.. إن الظالم ليس إلا رجلا تغلب بإرادته على العدل والقاتل ليس إلا رجلاً تغلب بإرادته على الحياة.

ونابليون ليس إلا رجلا تغلب بإرادته على مبادىء الثورة الفرنسية.

ونورى السعيد ليس إلا رجلا تغلب بإرادته على أوهام العرب فى بناء مستقبلهم.

إن الإرادة تستطيع أن تهدم كل من نعيش من أجله.

قالت :

- إنك تعتبر الحب فضيلة!!

قلت :

- إنه أبو الفضائل..

قالت :

- إنى لا أحدثك عن الإنسانية، إنى أحدثك عن الإنسان عن الفرد.. عن الحب بين الرجل والمرأة.

قلت :

- هذا الحب أيضا فضيلة.. إنه أرقى مشاعر الفرد.. إنه ينبوع السعادة الحقة وينبوع الفن وأساس الرقى بالشخصية الفردية.

قالت فى حدة !

- ليس بين الرجل والمرأة فضيلة إلا الزواج.

قلـــت :

– إن الزواج مـا هو إلا إطار وضعـه المجتـمع للعلاقـة بين الرجل والمرأة.. وقد يضـم هـذا الإطار لوحة تمثل الفضـيلة وقد يضـم لوحـة تمثل الخـديعة.. قـد يكون إطارا للحب وقـد يكون إطارا للنفاق.

قالت :

– أى أنك تقر الحب بلا زواج.

قلـــــت!

– إن كل فنان يهـــمــه أن يصنع إطارا للوحـــتــه ولكنه إن لم يســتطع أن يجـد إطارا فلن يقلل ذلك من قـيـمة لـوحتـه.. فالإطار مـن صنع النجار واللوحـة من صنع الفن.. الزواج من صنع الناس والحب من صنع القدر.. الزواج عقد تملك وامتلاك والحب ليس فيه عقود وليس فيه تملك إنه مجرد تجاوب روحى يرفعك فوق الماديات.

قــالت :

– إنك خيالى والمجتمع لا يستطيع أن يعيش فى خيال.

قلـــت :

– إن المجتمع فى حاجة دائمـا إلى الخيال ليندفع إلى الأمام حتى المختـرعات المادية التى أصبحت اليـوم حقائق.. بدأت فى رؤوس أصــحـابهـا مجـرد خـيــال ـ الراديو.. والفـريجـدير.. والغســالة الكهربائيـة.. والسينمـا والتليفـزيون الملون والقنبلة الذرية كل هذه الحقـائق بدأت فى رؤوس بعض الناس كخـيال لا يصدقه المجـتمع ولا يعيش فيه وسيـأتى اليوم الذى يصبح

الحب حقيقة يعيش فيهـا المجتمع لا مجرد خيال يحلم به بعض الفـلاسفـة سـيـأتي هذا اليوم، وهـو اليوم الذى يرتـقى فيـه الإنسان فيصبح ملاكا.

قالـــت :

– لقد خيبت أملى.. كنت أظنك رجلا واقعيا أستطيع أن أجد عندك حلا لمشكلتى!

قلـــت :

– لقـد خيـبت أمل الكثيـرين.. كلهم يريدون منى أن أكـون واقعيـا ولكنى أرفض لأنى لا أجد السعـادة فى الواقـع.. أجدها فى خيالى.

وخرجت غاضبة !

الرقص والشخصية

ما هو الفن ؟

إنه تعبير عن معنى.

وكل ما يثيرك ويؤثر فيك من الفن هو معناه..

ولا يوجد فن بلا معنى.. لا توجد موسيقى بلا معنى، ولا رسم بلا معنى، ولا أدب بلا معنى، ولا رقص بلا مغنى.. وقد يكون معنى وضعيا، أو معنى تعبيريا.. أو معنى واقعيا أو معنى رمزيا.. ولكن هناك دائما معنى لكل فن.

وقد شاهدت في الأسبوع الماضي عرضا راقصا اسبانيوليا.. كان مجموعة قصص يرويها الراقصون والراقصات وترويها معهم الأنغام.. قصص مفهومة لها بداية ونهاية ولها حوادثها وأبطالها.. وقد يختلف معناها في ذهن كل متفرج ولكن كل متفرج يخرج منها بمعنى.

وكل رقصات العالم لها معنى. الرقص الهندي له معنى والرقص الأسكتلندي له معنى والرقص الهنغاري له معنى

ورقص الغجر له معنى.. حتى رقص الكلاكيت الذى لا يتجاوز نقرات مرتبة القدمين والذى لا أحبه ولا أهضمه يجب أن يكون له معنى يقصده الراقص أو الراقصة.

ما هو المعنى الذى يوحى به الرقص الشرقى.. رقصنا ؟

ما هى القصة التى ترويها الراقصة لجمهورها ؟

لا شيء إطلاقا.. حتى سمى هذا الرقص «هز البطن» لأنه ليس له معنى إلا أن هناك امرأة تهز بطنها وقد يكون لمجرد هز البطن معنى قد تهز الراقصة بطنها غضبا أو مرحا.. وقد تهزه لتعبر عن عذاب تقاسيه أو أمل ترجوه.. أو.. أو.. ولكن المصيبة أن الراقصة نفسها لا تقصد أى معنى بهز بطنها.. حتى معنى الإثارة لا تقصده بفنها إنما تقصده بمجرد الكشف عن جسدها.

ولم يكن الرقص الشرقى دائما هكذا بلا معنى.. فقد تطور هذا الرقص إلى أن أصبح بهذه الأوضاع التى نشاهدها الآن فى عصر الحريم عصر العباسيين وسلاطين آل عثمان وكان تطوره تلقائيا أى لم يتعمده فنان إنما أملته الظروف التى كانت تعيش فيها نساء السلاطين.. كن محرومات من الحرية، ومحرومات من الحب ومحرومات من حق الشكوى فبدأن يعبرن عن حرمانهن خلال الفرصة الوحيدة التى تتاح لهن للمثول بين يدى السلطان.. فرصة الرقص فكانت الغاضبة تعبر عن نفسها برقصها وكانت العاشقة تعبر برقصها عن عشقها والتى تشكو تسمع شكواها فى حركات جسدها وليس معنى ذلك أن السلطان كان يفهم ما يعبرن عنه من معان ولكن الراقصات كن يتعمدن هذا المعنى كل هذا ضاع عندما استقر

الفن فوق بطون هؤلاء الراقصات الجاهلات الرخيصات.

حتى بدلة الرقص لهـا معنى ليست مـجرد ثوب يكشف عن الجسد إنما هو تطور لزى المرأة الفـرعونية الراقية حـتى عصر كليوباترا.. هذا الثـوب نفسه كانت ترتديه كليـوباترا فهل تعلم ذلك سامية جمال أو سنية بسكليت؟

ثم الموسيـقى التى تصاحب هذا الرقص هل لها معنـى أكثر من الواحدة والنص ولو كان لها مـعنى هل تستطيع الراقصات الميجلات فهمـه ؟ لقد وضع عبدالوهاب قطعة موسيقـية معبرة أسماها بنت البـلد فيها معـانى بنات البلد وفيها دلالهن وفـيها قصة يوم من أيامهن.. وقد رقصت بعض الراقصات بمصاحبة هذه القطعة الموسيقية فهل فـهمت معناها وهل عبرن برقصهن عن بنت البلد وقصتها ؟؟ أبدا!!

وبعــد.

فقـد يذكر القراء أنى سـبق أن كتبـت ـ منذ سنوات ـ حول هذا الموضوع وطالبت بإنشاء مدرسة أو معهد للرقص الشرقى وطالبت بإنشـاء باليه مصـرى وقد لا يعلم أحد أنى منذ شهور قليلة قضيت سـاعـة أتحدث فـيهـا عن الرقص إلى أحد كـبار المسئولين.

إننى أعتبـر الرقص أحد مظاهر الشخصية المصرية كما أنه مظهر من مظاهر الشخصية الوطنية فى كل أمة وفى كل بيت.. فإما أن يكون له معنى وإلا.. حرموه.

جبـــان

في أحـد الأيام عـدت إلى بيـتي في السـاعـة الثانية صباحـا وما كدت أهم بخلع ملابسـي حتى سمعت جرس البـاب يرن.. وتوقفت برهة أتساءل من يكون الطارق في هذه الساعة.. وطافت بذهني كل الخـواطر والاحتمـالات وكلهـا خواطر واحـتمالات تقـبض الصدر ثم توكلت على الله وذهبـت إلى الباب وفتحت الشـراعة الزجاجـية.. فرأيت خلف البـاب شابا أسمـر تنبعث من عـينيه الواسعتين أضواء حادة ثائرة ترتعش شـفتاه عندما يتكلم كأنه يضبط أعصابه قبل أن يقدم على أمر خطير.

ونظرت إليه متسائلا وأنا أحاول أن أتذكر وجهه.

ثم سمعته يقول :

أريد أن أقابلك

قلـــت :

– إن الوقت متأخر.

قـــــال :

– ولو.. افتح لى !

قلـــــت :

– لا أستطيع.. إنى لم أتعود أن أستقبل إنسانا لا أعرفه، فى هذه الساعة.

ووضع يده فى جيب بنطلونه وهو يقول :

– أريد.. أن..

ومـا كدت ألمحـه يضع يده فى جـيب بنطلونه حـتى أغلقت «شراعة البـاب» فى وجهه، وألقيت بنفـسى على الأرض بعيدا عن الباب.. وأرهفت أذنى لأتلقى صوت طلقات الرصاص.

ولم ينطلق الرصاص.

وبقـيت فتـرة منكفـئـا على الأرض، دون أن أسمع صـوت أقـدامه وهى تبـتعـد عن الباب، ودون أن يطرق البـاب أو يدق الجرس مرة أخرى.

وزحفت على بطنى حتى وصلت إلى البـاب وأحكمت إغلاقه ثم قفزت بعـيدا إلى حيث آلة التليفـون واتصلت بقسم بوليس قصر النيل، ورويت للضابط النوبتجى الحادثة.

وبعد دقائق كان الضابط فى بيتى.

وأعـدت عليـــه مـا حـدث، ثم تركنى بعـــد أن وضع جنديا لحراسة البيت.. وحاولت أن أنام بعد ذلك فلم أستطع فقد كانت ذكريات حـوادث الاعتداء علىّ تتوالى فى ذهنى وكـانت صور خطابات التـهديد التى لا يزال يـصلنى بعض منها تقـفز أمـام عينى.

وضيعت على نفسي.. نفسى التى أضعها على طرف قلمى وأعرضها لكل هذه الأخطار..

لم أنم حتى الصباح.

ومكثت فى فراشى أتقلب إلى أن جاء الخادم يدعونى لمقابلة ضيف لا يريد ذكر اسمه.. وخرجت إليه من غرفتى وأنا مطمئن إلى ضوء النهار.

وكان نفس الشاب الأسمر.

نفس العينين الواسعتين.. ونفس الشفتين المرتعشتين.

وقلت له دون أن أحييه :

- ماذا تريد ؟

قال :

- أنا خطيب الخياطة التى كانت عندكم أمس، وأريد أن أتأكد فى أى ساعة خرجت من عندكم!

قلت وأنا أكاد أمد يدى إلى عنقه :

- من أجل هذا تزعجنى فى الساعة الثانية صباحا.

قال :

- إنها مسألة تتوقف عليها حياتى!

وهدأت قليلا وبدأت أشفق عليه وقلت !

- كنت أخشى أن تكون مسألة تتوقف عليها حياتى أنا!

وتركته ليجيبه من فى البيت على سؤاله.

وعدت إلى حيرتى! إن كل إنسان أسىء الظن به أندم على إساءة ظنى به. وكل إنسان أثق به أندم على ثقتى به فأين المفر؟!

الحــــب الأول

التـقيت بزوجـين انجليزيين يقـضيـان شهـر العـسل فى القـاهـرة وسـألت العـروس : لماذا اختارت القاهرة لقضاء شهر العسل؟!

أجابت فى صراحة خلتها سذاجة !

– لأنها مسقط رأس حـبى الأول.. لقد التقـيت فيـها بأول رجل أحببته !

قلت : هل يعلم زوجك ؟

قالت : نعم.. وقد اتفقنا أن نقـضى شهر العسل فى القاهرة ليتعرف بنفسه على الرجل الذى كنت أحبه!

قلت : لماذا اعـتـرفت له بـحـبك الأول.. إن الماضى مـيت، واستحضار أرواح الأموات يزعج الأحياء.!

قالت : إن زوجى يعرف كل أمـوات عائلتى.. ولست أوافقك على أن الماضى ميت إنه حى دائمـا.. حى فى نفسى.. إنه قطعة من تكوين شخصيتى ويجب أن يعـرف زوجى شخصيتى على حقيقتها !

قلت : لقد أحبك دون أن يعرف ماضيك!

قالت : أحبني وأنا في الثالثة والعشرين من عمري، وهو ليس مغفلا ليعتقد أني وصلت إلى هذا العمر دون أن يخفق قلبي بالحب ولو مرة واحدة!

قلت : كان يكفي أن تدعيه يستنتج أن في حياتك رجلا سبقه إليك.. ولكن لا تضعي الحقيقة كاملة أمام عينيه.. فإنه قد يكذب استنتاجه.. ولكنه لا يستطيع أن يكذب اعترافك!

قالت : بالعكس.. لو تركته للاستنتاج فسيتوهم أن كل رجل يبتسم لي أو يرفع لي قبعته كان حبيبي.. وستعذبه أوهامه!

قلت : إن صورة حبيبك الأول ستترك في نفسه عقدة تعذبه.. سيتصور دائما إنك كنت تحبينه أكثر منه سيذكر كلما قبلك إن شفتيك التقتا بشفتي آخر قبل أن تلتقي بشفتيه.. سيذكر كلما ضمك أن جسدك ضمه آخر قبل أن يضمك.

وباختصار سيشعر دائما أنه تزوج معطفا قديما «سكند هاند» وأنه ليس أول من يتدفأ به.

قالت : لهذا جئت به إلى القاهرة ليلتقي بالرجل الذي كنت أحبه ويتعرف إليه فتنمحي العقد من نفسه ويتأكد عندما تجلس ثلاثتنا سويا أنني قد أصبحت له وحده وأني أحبه هو وحده!

قلت : إني غير مقتنع!

قالت : لا تنس أنه أيضا اعترف لي بماضيه وعرفت الفتاة التي كان يحبها!

قلت : ولو أن المرأة قد تحتمل اعـتراف الرجل بماضيه ولكن الرجل لا يحتمل اعتراف المرأة بماضيها.

قالت : لماذا ؟

قلت : لأن الرجل طفل كبير وإنما المرأة امرأة.

إن الرجل له غـرور الطفل وأنانيتـه وسذاجتـه إنه يحب أن يعـتقـد في نفسـه أنه يأتي دائما بما لا يسـتطيع غيـره.. وأنه تزوج المرأة التي لم يمـسها مخـلوق قبله ولم تجد قـبله رجلا تحبه أما المرأة فـهي أكثر واقعية.. إنها أكـثر نضجا من الرجل إنها تفهم حـقائق الحياة وتعترف بهـا وتنزل على حكمها وهي تعـرف دائما أنهـا ليست أول امرأة في حـيـاة زوجهـا، وكل ما تحرص عليه أن تكون آخر امرأة.

قالـــت :

– لقد كبـر الرجال عندنا ولم يعودوا أطفالا.. إنهم يفـهمون الحياة ويعترفون بالواقـع.. عقبال عندكم!!

وكان قد انـضم إلينا الرجل الذي أحبته قـبل أن تتزوج إنه مصـري تزوج أخيرا. وقـد جاء ومعـه زوجته وجلس الجـميع سعداء وقام كل رجل يراقص زوجة الآخر!

وهمست في أذن الشاب المصري :

– هل اعترفت لزوجتك بحبك القديم .

قال هامسا : أتريد أن تخرب بيـتي.. اعمل معروف لا تفتح السيرة!

وهذا هو الفرق الكبير بيننا في مصر وبينهم في انجلترا أو فـرنسـا أو ألمانيا وأمـريكا.. الفـرق بين مـجـتمـعنا الحـائر.. ومجتمعهم المستقر!

إننا فى مصر لا نسمح للزوجة بأن تعترف لزوجها بماضيها حتى لو كان هذا الماضى لا يضم إلا علاقة بريئة طائرة لأن التقاليد القديمة البالية تصر على اعتبار أى علاقة بين فتى وفتاة خطيئة كبرى.. ورغم ذلك.. رغم إننا لا نزال ندعى التمسك بهذه التقاليد فإننا نرتكب هذه الخطئة، نرتكبها لأن واقع الحياة يحتم علينا ارتكابها ويدفعنا إليه دفعا.

ونحن لا نريد أن نفتح أعيننا إلى الفرق بين التقاليد التى ورثناها والواقع الذى نعيش فيه.

كانت التقاليد تعتبر العلاقة بين الفتاة والفتى مهما كانت هذه العلاقة.. خطيئة لأن الفتاة أيامها كانت لا تشترك فى الحياة العامة.. كانت سجينة خلف المشربيات والبراقع.. وكان كل من يحاول الاتصال بها يرتكب جريمة مساعدة سجين على الهرب.. الهرب من التقاليد!

أما اليوم فقد تحررت الفتاة خرجت إلى الحياة العامة لتعيش فى مجتمع واحد مع الفتيان.. ولم يعد فى إمكاننا أن نطبق عليها لوائح السجن.. لم يعد فى إمكاننا أن نحرم الفتاة من تقبل ابتسامة من فتى ولا أن نحرمها من تبادل الأحاديث ولا من الحب إذا جمع بينهما الحب.

كل ما نستطيعه اليوم هو أن نعترف بالمجتمع الجديد وأن نعترف بأن التقاليد القديمة لم تعد تصلح له ثم نفكر فى تنظيم هذا المجتمع وفى وضع تقاليد جديدة له تخرجه من الحيرة التى يعانيها أفراده.

وأول بند فى التقاليد الجديدة هو أنه ليس كل علاقة بين

فتى وفتاة تعتبر خطيئة وأن الحب نفسه ـ الحب العف البرىء ـ ليس خطيئة.

والبند الثانى ، أن هذه العلاقات يجب أن يعترف بها الآباء والأمهات ويضعونها تحت إشرافهم لتبقى علاقات بريئة طاهرة، فإن شعور الجيل الجديد بأن كل علاقة بين الجنسين هى خطيئة.

هذا الشعور هو الذى يدفعهم إلى الاختباء عن الآباء والأمهات والتحايل عليهم ثم يدفعهم إلى الخطيئة نفسها!

وإلى أن نضع هذه التقاليد الجديدة.. إلى أن نعترف بالأمر الواقع فى مجتمعنا.. إلى أن يكبر الرجال عندنا ويجدوا فى نفوسهم الجرأة على تفهم حقيقة الحياة.. إلى أن يحدث ذلك.. فإنى أحذر كل زوجة مصرية من أن تعترف لزوجها بحبها الأول.

الزوجة العالمية

يبدو أنه أصبح من المحتم على ستات البيوت أن يدرسن السياسة الدولية، وأولا يكتفين من قراءة الصحف بصفحة الوفيات وإعلانات السينما.. فقد دخل ساسة العالم إلى المطبخ ومدوا أصابعهم إلى ميزانية كل بيت، وقد يبتسم إيزنهاور فينخفض سعر القوطة، ويكشر تشرشل فيخرج السكر من التسعيرة، وتمد روسيا لسانها فتلطم أم عبده من سكان حى الحسين خديها وتفقع بالصوت.

الخبز مثلا.. أصبح مشكلة دولية وأصبح رغيف العيش لا يصل إليك فى مصر إلا بعد أن تميل انجلترا على أذن أمريكا ثم يميل كل منهما على أذن كندا، ثم يتبادل الجميع الزغزغات مع روسيا والأرجنتين، ثم تنعقد هيئة تسمى «هيئة القمح الدولية» ويتبادل أعضاؤها الشتائم والاتهامات لمدة شهر أو شهرين. وأخيرا يصل الرغيف إليك!

وهيئة القمح الدولية تضم جميع الدول المصدرة للقمح مثل كندا، والمستوردة للقمح مثل مصر.. ما عدا روسيا والأرجنتين وبعض البلدان الأخرى التى تصر على أن تتعامل فى سوق حرة لا تقيدها أهواء الأمم المتحدة.

ويتفق أعضاء هيئة القمح الدولية على الكميات التى ستستطيع كل دولة تصديرها والكميات التى تحتاج كل دولة لاستيرادها.. ثم يعقدون فيما بينهم اتفاقيات تحدد السعر الأدنى والسعر الأعلى للقمح، وأمريكا وكندا هما الدولتان اللتان تتحكمان فى هذا السعر لأنهما أكبر الدول المصدرة.

وانجلترا ـ مثل مصر ـ دولة مستوردة للقمح، وقد لاحظت فى العام الماضى أن إنتاج القمح العالمى قد زاد زيادة كبيرة فطلبت من هيئة القمح الدولية تخفيض السعر طبقا لقانون العرض والطلب.. ولكن أمريكا رفضت حماية لمصالح مزارعيها، وأصرت على الرفض، فرفضت انجلترا التوقيع على الاتفاقية منذ العام الماضى، وذهبت تشترى القمح من روسيا بسعر السوق الحرة، حتى تستطيع ربه البيت الانجليزية أن تشترى الرغيف بثمن أقل.

وقد زاد انتاج القمح فى أمريكا هذا العام زيادة أخرى حتى انخفض سعره عن سعر السوق الحرة، وأخذ مزارعوها يهددون بضرورة تنفيذ الاتفاقيات الدولية فى حدود السعر القديم.. ولكن الدول كلها ستتحرر قطعا من هذه الاتفاقيات، ولذلك أعلنت أمريكا أنها ستدفع معوناتها الاقتصادية للدول فى شكل زكائب من القمح.. ولو حدث هذا فمعناه أن تحصل

الدول على القمح مجانا، وتستطيع بذلك أن توزع أرغفة الخبز على شعوبها مجانا، ولكنها لن تفعل ذلك قطعا، وإنما ستتولى الدولة بيع الخبز للشعوب عن طريق المخابز لتحصل على ثمنه وتضمه إلى ميزانيتها.. وكل ما قد يعود على الشعب هو أن يزداد وزن الرغيف.

هذه - باختصار - مشكلة الرغيف من الناحية الدولية.. وستعقبها حتما بقية المشاكل، وقد تتألف هيئة دولية لتوزيع السكر وقد تتكون داخل هيئة الأمم المتحدة لجنة باسم لجنة الخيار الدولية وهيئة الشرابات النايلون العالمية ويصبح من أهم مسئوليات مولوتوف وإيدن ودالاس تحديد سعر البصل والملوخية والجبنة الرومى.. ويصبح على ربة البيت فى مصر أن تتصل بليك سكس لتعرف سعر البطيخ والزبد ومتر الدمور حتى لا يغشها بائع فى الغورية أو بين الصورين.

هذه حقائق لا ريب فيها رغم ما يبدو من أسلوبها الساخر.

فالعالم يسير بجنون نحو الارتباط بعضه ببعض حتى فى أدق شئون أفراده.. ولن يوجد مكان للمؤمنين بما يسمى العزلة أو الاكتفاء الذاتى أو الوطنية.. إننا نسير نحو ما يسمى العالمية. ابحث لنفسك منذ اليوم عن زوجة عالمية!!

هــل أنـا فيلسـوف ؟

هل أصبحت فيلسوفا ؟

لا أدرى.. فإنى أقرأ الفلسـفة ولكنى لا أريد أن أكون فيلسوفا.. ورغم ذلك فإنى أشعر بأن قدمى ترتفعان عن الأرض وأنى أغوص فى أعماق الفكر إلى أبعـد مـا تعـودت وإنى أنـظر إلى مـوكب الحـيـاة كـأنى لا أشتـرك فيه وأنظر إلى الناس كأنهم أطفـال صغار يعبـثون فأطل عـليهم وبين شـفتى ابتـسامة سـاخرة مـشفـقة كـأنها ابتسامة شيخ وقور خبر الحياة حتى ملها، وعرك الدنيا إلى أن وجد الغنم فى البعد عنها.

حـتى ذوقى فى القـراءة بدأ يـتغـيـر وبـدأت أهتم بما كنت أعتبـره مضيعـة للوقت.. بدأت أقرأ طه حسـين على أن مشكلة الساعة هى موضـوع الخلافة بعد موت عثمان بن عفان.. وبدأت أحسـد توفيـق الحكيم لأنه يعيش مع شـهرزاد ويسـتطيع أن يناقش مـعهـا موضـوع الجنة والنار ويستطيع أن يـرى ملاك

الموت فى صورة محصل مصلحة الكهرباء.. وبدأت للمرة العاشرة بعد الألف أحاول أن أقرأ الصفحة الأولى من الكتاب الأول فى سلسلة الروائع المائة للأستاذ الفيلسوف عبدالرحمن بدوى.. وقد ترحمت على ماضىّ ومستقبلى عندما استطعت أن أصل إلى الصفحة الثانية.. ولكنى لا أريد.

لا أريد أن أكون فيلسوفا.

أريد أن أكون مع الناس، وأن أشترك بكل قطرة من دمى وكل عصب من أعصابى فى موكب الحياة.

أريد أن أعيش فى السعادة والعذاب، فى النجاح والفشل، فى الأمل والخيبة فى الابتسام والدموع.. أريد أن أكون حيث كنت دائما، وقدماى ثابتتان على الأرض وقلمى معى.

إنها معركة.

معركة بينى وبين قلمى.

قلم أريده أن يعيش معى فى الواقع الذى يحيط بكلينا، وهو يحاول أن يجذبنى معه نحو السماء، سماء الفلسفة.

امسكوا بى.. قبل أن أطير!!

النوم والموت

إنى مصاب بالأرق منذ أسبوع.

إنى أعمل فى مكتبى معظم أيام الأسبوع حتى الساعة الثانية صباحا، وأتناول فى اليوم الأول أكثر من عشرين فنجان قهوة وأحرق ثلاث علب سجاير.. ثم أعود إلى بيتى ورأسى أثقل من رأس تمثال رمسيس الثانى، وطعم القهوة يملأ فمى وصدرى يضيق بالدخان وأحاول أن أنام فلا أنام.

وأضىء النور وأقرأ.. وبجانب فراشى دائما كل أنواع الكتب.. كتب فى السياسة.. وكتب فى الأدب.. وكتب ثمينة وكتب رخيصة وكتب بيضاء وكتب صفراء وأظل أقرأ حتى تضيق عيناى وتعجزا عن التقاط السطور فأطفىء النور وأحاول أن أنام فلا أنام.

وآخذ فى العد من واحد إلى مائة ثم إلى مائتين وإلى خمسمائة.. ولكنى لا أنام!!

وأتلو في صدري بعض آيات القرآن.. ولا أنام وأقوم من فراشي وأدير بعض الأسطوانات، لأني أعرف أن الموسيقى تريح الأعصاب ثم أرقد على الأرض بجانب «البيك آب» لعل ملاك النوم يرحمني.. ولكنه لا يرحم ويتركني لشيطان اليقظة!

وأنتفض واقفا وأقوم ببعض الحركات السويدية ثم أطوف بغرف البيت وأحدق في مجموعة الصور القليلة التي أحبها ثم أدخل غرفة ولديّ لأحكم حول كل منهما الغطاء، وألقي بجسدي بجانب أحدهما وأضمه إلى صدري كأني أتوسل إلى الله بحق هذا الصغير أن يرحمني.

ولكني لا أنام!!

وفي خلال هذه الساعات أتعذب.. أحس بأعصابي تلتهب كأني أطفأت فيها كل السجائر التي دخنتها في يومي وأحس برأسي يضج وكأنه قد ركب فوقه آلة لدك الأساس.. وأحس بجفوني يرخيها التعب ويشدها العذاب.. وكأنه قد غرزت فيها آلاف من الإبر.. وأحس بروحي تثور على كل شيء، تثور على نفسي وتثور على عملي وتثور على حظي في الدنيا.

أريد أن استريح.. أريد أن أغمض عيني.. أريد أن أنام.. أريد أن أموت!

ما هو النوم؟.. إنه موت مؤقت!

ورغم ذلك فإننا نريد النوم وكأننا نريد الموت!

وعندما لا ننام نتعذب بالأرق، وعندما لا نموت نتعذب بالحياة!

وكثير من الفلاسفة تصوروا الحياة بلا موت فوجدوها

عذابا لم يجدوا بدلا من الموت إلا الأرق.. الأرق المضنى!

في قـصـة «بندورا والهولـندى الطائر» حكمت الآلهـة على المجـرم الذى قتل زوجـته.. بالحـيـاة الخالدة حـياة لا تنتـهى بالموت.. وفرح المجـرم بهذا الحكم وظن أن الآلهـة قد كـافأته.. ولكن لم تنقض السنون حـتى بدأ يتعذب بالحيـاة.. بدأ يصاب بالأرق الأكبر واسـتعطف الآلهة أن تعفيه من حكمـها.. وحاول أن ينتحر عشرات المرات ولكن الآلهة نفذت حكمها فيه.. وعاش جيـلا بعد جـيل، ولم يكن ينقصه شي ء مـن أسباب الحـياة.. لم يكن ينقصــه الشباب ولا الجمال ولا المال.. لم يكـن ينقصه إلا الموت.

وعندما عفت عنه الآلهة.. رحمته بالموت!!

وفى قـصـة «فاوست» يثـور الرجل العـجـوز على الله لأنه يضع لكل شىء نهاية، الإنسان يموت، والزهور تذبل والشمس تغيب.. والشباب ينتهى إلى الشيخوخة.

ويبرز له الشـيطان ويعقـد معه صـفقة.. أن يهب له شـبابا لا يمـوت، نظيـر أن يضع نفسـه فى خـدمتـه.. ويقـبل الرجل الصفـقة.. ثم تسـير الحوادث حـتى يندم ويشتـهى الراحة من شبابه.. يشتهى الموت!

وأنا لا أريد الموت الأخـيـر ولا اشتـهـيـه ولكنى أريد الموت المؤقت.. النوم.. الراحة من اليقظة!

والذين حولى يسـألوننى لماذا لا أذهب إلى الطبيب؟

إنه سيـوصينى بالامـتناع عن القهـوة والسـجـائر وبتناول أقراص منومة.

وأنا لا أستطيع أن أستغنى عن القهوة.. إنى أسكبها فوق شبابى الذى حبسته بين جدران مكتبى كما يسكب الماء الرطب حول القبر ليتعزى الميت من الجفاف الذى يضم جثمانه.

ولا أستطيع أن أمتنع عن السجائر.. ويخيل إلى أنى إن لم أحرق السجائر فسأحرق نفسى.. لابد من شىء أنفس به عن الحمل الثقيل الذى تحمله أعصابى، والسجائر هى أخف شىء!

أما الأقراص المنومة فهى تنيم كل شىء فى حتى عنادى.. وقد كنت أتناولها فى السجن لأنى لم أكن فى حاجة إلى العناد.. أما خارج السجن فإنى فى حاجة إلى كل عنادى لأتقدم.. ولكنى لا أتقدم.. إنى أجرى.. والعذاب يجرى ورائى عذرا.

اعذرونى لهذا التشاؤم.. فإنى أكتب بعد ليل طويل أرق!

المحامى والمجرم

هناك مناقشة قديمة حول موقف المحامى من المجرم.

هل من حق المحامى أن يدافع عن المجرم وهو متأكد من أنه مجرم.. هل من حقه أن ينفق تهمة القتل عن القاتل وهو يعرف أنه قاتل.. هل من حقه أن ينفى تهمة السرقة عن اللص، وهو يعلم أنه لص؟!

الرأى الغالب ـ رأى السادة المحامين ـ يقول إن المحاماة هى مهنة الدفاع عن الإنسان.. الإنسان المتهم.. سواء كان بريئا أو مذنبا.. وقد تكون هناك دوافع إنسانية تبرز الذنب، أو تخفف من عقوبته، وهى دوافع اعترف بها القانون فى أكثر من مادة، وواجب المحامى فى هذه الحالة أن يبرر هذه الدوافع، حتى يخفف العقوبة عن المتهم إن لم يبرئه.

وهناك بعض المحامين يرفضون الدافع فى نوع معين من القضايا.. كقضايا هتك العرض، أو قضايا المخدرات ولكن هذا

الامتناع ليس ـ في الغالب ـ ترفعا، أو انعكاسا لمبدأ، ولكنه نوع من التخصص.. فالمحامي يرفض الدفاع عن قضايا المخدرات، لأنه يستطيع أن يستغني عن أتعابه فيها، بأتعابه في قضايا البنوك والشركات.. مثلا.

والمناقشة ـ كما قلت ـ قديمة، ويطول الحديث فيها.

ولكن الجديد، هو تحديد العلاقة بين المحامي والمجرم.. تحديد العلاقة الشخصية بينهما.

هل يحدد المحامي علاقته بالمجرم على أنه مجرم.. وتقتصر العلاقة بينهما على موضوع القضية إلى أن تنتهي فينفض يديه منها، وهو متأفف.. قرفان.. رغم أنه قبض الأتعاب أم يعامله كزبون؟

يجامله كزبون.. وينافقه.. ويتودد إليه.. ويحاول أن يكسب صداقته.. ثم قد تستمر هذه الصداقة إلى ما بعد القضية.. وقد تنتهي إلى نوع من التعاون، رغم عدم اشتراك المحامي في الجريمة.. كأن يتولى ـ أي المحامي ـ إدارة أملاك المجرم إذا كانت له أملاك. أو يصبح مستشاره القانوني في الجرائم التي يرتكبها.. أو.. أو.. ويقضي معه السهرات، ويدخل بيته.. و... ويرفع التكليف؟!

إنه سؤال مهم..

فالمحاماة تنقلب أحيانا، من مهنة الدفاع عن الإنسانية إلى مهنة تشجيع الجريمة وتأييدها!

وفي كل الدول يعاني المجتمع من العلاقات التي تقوم بين المحامين والمجرمين.. علاقات التعاون.. وفي كثير من دول

العالم ـ خصـوصـا فى أمريكا ـ تكونت عصـابات من المحامين تتعاون مع عصابات من المجرمـين.. وظيفتها إرشاد المجرم إلى ثقوب القانون التى يمكن أن تنفـذ منه الجريمة.. ثم الدفاع عنه إذا قبض عليـه.. ثم الإشراف على مصالحه وعلى عـائلته وهو داخل السجن.

ونحن الآن فى حاجة إلى مناقشة هذا الموضوع.

وأنا لا أتهم أحدا..

ولـكـن ..

الصداقة بين بعض المحامـين وبعض كبار تجار المخدرات.. معروفة!

والصـداقة بين بعـض المحامـين وبعض كـبار اللصـوص.. معروفة!

والعـلاقـة بين بعض المحـامـين وبعض المتـهـربين من الضرائب.. معروفة!

ولعل النقابة ـ نقابة المحامـين ـ تفتح باب المناقشة وتحاول أن تضع حـدودا واضـحة لتـقاليـد المحامـاة.. من أجل سمـعة المحامين..ومن أجل كرامة المهنة!

سر الأحكام التى تشكو منها المرأة فى قوانين الأحوال الشخصية، هو :

النفقــــــة..

□ إن حق الرجل فى جـرجـرة الزوجـة إلى بيت الطاعـة، هو حق مبنى على التـزامه بالإنفـاق عليـها.. فـما دام ملزما بالإنفاق عليها، فمن حقه أن يحوزها، ولو بقوة البوليس!

وحق الرجل فى رد زوجته المطلقة، خـلال ثلاثة شهور عن طلاقها هو حق يأخذه مقابل التزامه بالإنفاق عليها خلال هذه الشهور.

وحق الرجل فى الزواج من أربـع، هو حق أساســه قـدرته على الإنفاق عليهن.

كل حـقـوق الرجل المتـعلقـة بالزواج والطلاق والحـضــانة والإرشــاد و.. و.. كلهـا قـائمـة على أســاس أن الرجل مكلف بالإنفاق على المرأة.

إنها مسألة اقتصادية محضة.

وقد صــدر فى العـراق قانون يســاوى بين نصـيـبى الرجل والمرأة فى الميــراث.. للرجـل مـثل حـظ الأنثى، لا مــثل حظ

الأنثيين، كما تنص الشريعة.

واعترض رجال الدين.

واعترض رجال القانون أيضا.

وكان اعتراضهم قائما على أساس أن نفس القانون يلزم الزوج بنفقة زوجته.. ولا يلزم الزوجة بالإنفاق على الزوج.. ومعنى هذا أنها تأخذ نصيبها من الميراث، وتأخذ أيضا نفقة الرجل عليها.. ولا يبقى بعد ذلك شيء.

فإذا كان الميراث مائتى جنيه.. وأخذت المرأة مائة، والرجل مائة.. فإن الرجل سيضطر بعد ذلك ـ وبحكم القانون إلى الإنفاق على المرأة خمسين جنيها من نصيبه.. على الأقل.. ومعنى ذلك أن المرأة ستحصل على ١٥٠ جنيها، والرجل ٥٠ جنيها فقط.. وكأننا قلبنا نص الشرع.. فبعد أن كان للرجل مثل حظ الأنثيين، أصبح للأنثى مثل حظ الرجلين.

ورأيى..

رأيى أن تتنازل المرأة عن حق إنفاق الرجل عليها، مادامت مصرة على أن تتساوى مع الرجل أمام قانون الأحوال الشخصية.. وما دامت المرأة تؤمن بحقها فى المساواة، فليس من كرامتها أن تطالب الرجل بالإنفاق عليها.. ليس من كرامتها أن تدعى أن إنفاق الرجل عليها هو نظير متعة بها. إنها ليست متاعا.. إنها إنسانة كاملة ذات شخصية مستقلة.. ومتعة الرجل بها.. تتساوى مع متعتها به.

هل ترضى المرأة أن تتنازل عن حقها فى النفقة؟

إنها مسألة اقتصادية بحتة!

ويوم يصبح للمرأة استقلالها الاقتصادى.. يوم تعمل وتكسب وتعول نفسها.. لن تحتاج إلى نفقة الرجل.. ولن يجادلها أحد فى مطالبتها بتعديل قوانين الأحوال الشخصية.

حتى العواطف
يملكها الشعب

كنت أتحدث مع زملائى عن الاشتراكية.. وقلت لهم إن التفسير اللفظى لكلمة «اشتراكية» هو : الاشتراك فى الحياة.. وكل مجتمع هو عبارة عن مجموعة من الناس يشتركون فى حياة واحدة.. أى أن كل مجتمع هو بطبيعته مجتمع اشتراكى!

وعلى قدر ما يحقق المجتمع من النظم الاشتراكية، يقترب من طبيعته.

والاشتراكية لا تتحقق إلا بتحقيق العدل والمساواة.. والعدل والمساواة لا يتحققان إلا إذا كان التفكير الذى يسيطر على المجتمع، هو تفكير يشمل المجموع.. كل شىء لمصلحة المجموع.. وكل شىء يحسب فيه حساب المجموع.. والفرد هو واحد من المجموع. ليس من حقه أن ينفصل عنه.. ليس من حقه أن ينفصل عنه حتى بعواطفه.. فعواطف الفرد ليست ملكا خاصا له، إنما هى ملك للمجموع.. للشعب!

وصاح أحد الزملاء :

– حتى العواطف!!

قلـــت :

– حتى العواطف.. الحب.. الكراهية.. والثورة.. والغيرة.. و.. و.. و.. و... كل هذا لا يستطيع أن تتـصرف فيـه وحدك إلا فى الحدود، وفى داخل النظم، التى اتفق عليها المجموع.

قال الزميل فى ذهول :

– كيـــف ؟

قلـــت :

– إنك لست حـرا فى أن تحب امرأة متـزوجة، مـثلا.. وإذا أحـببتـها فلـيس من حقك أن تمارس حـبك.. وإذا حـاولت أن تمارسه فـستضطر إلى الاختـباء.. إلى الهرب من المجـتمع لأن المجتـمع لا يقـر هذا الحب.. ولا يسمح لعـواطفك أن تتجـه هذا الاتجاه.. ثم إنك لو أحببت فتاة، فالمجتمع أيضا يتدخل فى حبك ويحدد لك الطريق الذى يجب أن تسـير فيه عـواطفك ويفرض عليك الزواج.. فإذا لم تتـزوج، وقف المجتمع يعارض عـاطفتك ويحرمك من حقك فيها.. وأنت لست حرا فى أن تتجه بعواطفك نحـو أعداء وطنك اتجـاها يخالف اتجـاه الشعب حـتى لو كنت مقتنعا بحب أعداء الوطن والتعاون معهم.

فليس من حـقك كفـرد أن تتجه بعـواطفك الوطنيـة اتجاها فرديـا.. وإلا أصبـحت خائنا، وحكم عليك المجـتمع بـالإعدام.. كـذلك لـو أعلن الشـعب الحـرب، فليس من حـقك أن تنادى بالسلام، حتـى لو كانت كل عواطفك مع السلام.. وإلا اعـتبرك الشعب هاربا من تأدية واجبك الوطنى.. و.. و..

فالمجتمع يتدخل فى عواطف الأفراد ويحددها وينظمها تماما كمـا يتدخـل المجتمع الاشـتراكى فـى نشاط أصحـاب رؤوس الأموال، ويتجه بهذا النشاط اتجاها يحقق الصالح العام.

الإعلان

ليس هناك نصف زواج أو ربع زواج.. هناك زواج أو لا زواج.. وحكاية الزواج الأولى هي : الإشهار.. إشهار علاقة رجل بامرأة.. أي مواجهة المجتمع بالعلاقة بين الإثنين.

ويتساوى في هذا الزواج الشرعي والزواج العرفي.. فالزواج الشرعي الذي لا يتوافر فيه عنصر الإشهار.. أي الذي يتم في السر.. ويبقى سراً.. لا يعتبر زواجاً حتى ولو اعترفت به الدولة.

والزواج العرفي الذي يعلن للناس، يعتبر زواجاً كاملا.. حتى لو لم تعترف به الدولة.

المهم هو الإشهار.. هو العلانية.. هو أن يعترف المجتمع أن هذه المرأة قد أصبحت لهذا الرجل، حتى يحدد ـ أي المجتمع ـ نظرته لهما، وتصرفاته حيالهما، ويرتب لهما الحقوق الاجتماعية ويعترف بأولادهما.

فالزواج أساساً، هو تنظيم اجتماعي لعلاقة الرجل والمرأة.

بل إن بعض المجتمعات اضطرت تحت ظروف خاصة، أن تعترف بعلاقة الرجل بالمرأة، بلا زواج، ما دامت هذه العلاقة قد أقيمت في العلن وتوافر فيها عنصر الإشهار.

وقد قال لي صديق عاد أخيراً من الأرجنتين، إن الناس هناك متدينون أشد التدين.. والدين يحرم الطلاق تحريماً مطلقاً.. ويحدث أحياناً أن يستحيل على الزوجين الاستمرار في حياتهما الزوجية.. فينفصلان.. ينفصلان بلا طلاق.. ثم يبقى كل منهما في حاجة إلى نصف آخر.

وكل منهما لا يستطيع أن يتزوج مرة أخرى.. وتكون النتيجة أن تتخذ الزوجة المنفصلة عشيقاً.. ويتخذ الرجل المنفصل عشيقة.. ومع الزمن تعددت هذه الحالات حتى شملت عدداً كبيراً من الناس.. وأصبحت تتم في العلن.. في مواجهة الناس.. أصبحت المرأة المتزوجة المنفصلة تعيش مع عشيقها حياة كاملة.. وأصبح الزوج المنفصل يعيش مع عشيقته حياة كاملة.. وتطورت التقاليد – تحت إلحاح الحاجة – فبدأ المجتمع يعترف بهذه الأوضاع.. وأصبح يعامل الرجل وعشيقته، أو المرأة وعشيقها كأنهما زوجان.. بل اعتبرهما زوجين.. أصبح المجتمع يدعوهما إلى الحفلات الرسمية والخاصة.. ويعترف بأولادهما كأولاد شرعيين.. و.. و.. إلى آخر الحقوق التي يمنحها المجتمع لكل زوجين.

فحتى هذه العلاقة التي لا تقوم على أساس من الدين أو الشرع قد أقرها المجتمع، لأنها نتيجة حاجة اجتماعية، ولأنها

تقوم على أساس الإشهار.. العلانية !

ومجتمعنا لا يمكن أن تقوم فيه مثل هذه العلاقة لأن ديننا يبيح الطلاق..

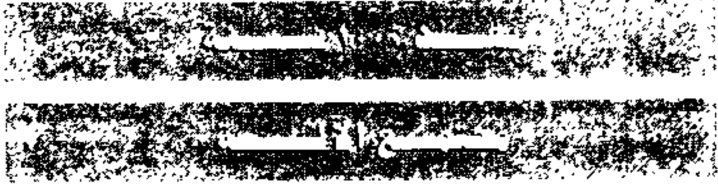
ولكن..

مجتمعنا أصيب فى السنوات الأخيرة بوباء الزواج فى السر سواء كان زواجاً شرعياً أو عرفياً.. والأسباب التى تدفع الزوجين إلى الاحتفاظ بزواجهما سراً.. كثيرة.. وقد يكون الزوج متزوجاً من أخرى، ويخاف منها.. أو قد تكون الزوجة لها معاش حكومى، تركه لها زوج آخر، ولا تريد أن تحرم منه.. أو.. أو..

ومثل هذا الزواج، لا يعتبر زواجاً.. لا أمام الله، ولا أمام الناس..

الزواج هو الإشهار.

وكل علاقة لا يتوافر فيها الإشهار.. أو العلانية.. لا تعتبر زواجاً.. ولا يترتب عليها حقوق اجتماعية.. حتى لو ترتبت عليها كل الحقوق المدنية.



ماهو أثر المخترعات العلمية الحديثة ؟

ما هـو أثر الصـاروخ الذى ينقلك من القـاهرة إلى الاسكندرية فـى نصف دقـيقـة.. والآلة التى تضغط على مـفتاحـها فتقـدم لك فرخة مـشوية، وتعـزف لك قطعـة مـوسـيقـيـة لتـسـاعـدك على الهـضـم.. والتليـفـزيون.. والوصـول الى القـمـر.. و.. و.. إن كل هذه المخـترعـات تبـحث عن الهدف، هدف الإنسـان وتقـضـى على المتـعة.. مـتعـة السيـر فى الطريق الى الهدف .. إن الصـاروخ ينقلك إلى الاسكندرية فى نصف دقيقة فيحقق لك الهدف الذى تريده.. ولكنه يحـرمك من مـتـعة الطريق.. مـن متـعـة قيـادة سيـارتك فى الطريق الصحراوى.. أو التـأمل من نافذة القطار فى جمال الطبيعة.

والتليفزيون ينقل السينما إلى بيتك.. ولكنه يحرمك من متعة الذهاب إلى دار السينما.. متعة التأنق فى ثيابك قبل أن تخرج..

ومتعة التسكع على باب السينما قبل عرض الفيلم.. ثم متعة إحساسك بأنك بين الناس داخل السينما.

وقد يظهر قريباً اختراع لتقصير مدة الحمل.

تتناول المرأة بعض الحبوب فتحمل وتلد فى ثلاث دقائق.. ويتحقق الهدف.. يصبح لها ابن.. ولكنها تفقد متعة تعلقها برجلها، ومتعة انتظار وليدها، هذا الانتظار الذى يولد فيها أحاسيس الأم، وشخصية الأم.

وهذه المخترعات ستعيد الإنسان إلى عهد الكهف.. ولكنه لن يكون كهفاً فى الصخر.. بل سيكون كهفاً من الألمونيوم، مزوداً بتليفزيون، وفريجيدير، ومطبخ كيميائى يعمل أوتوماتيكياً، فتضغط على زر فيه فتخرج لك صينية بطاطس فى « حباية ».. قرص صغير كقرص الاسبرين.. ولن تكون فى حاجة إلى أسنانك.. وبمرور الأجيال سيولد الإنسان بلا أسنان لعدم حاجته إليها.

ولن يحتاج الإنسان إلى الخروج من كهفه.. فكل مايريده سيجده داخل الكهف.. بل لن يضطر إلى الخروج ليعمل فالعمل كله ستقوم به الآلة.. آلة تنتج.. وآلة تدير الآلة وتنتهى سلسلة الآلات إلى زر يضغطه صاحب المصنع وهو جالس فى حجرة نومه، وأمامه لوحة الكترونية تبين له انتظام سير جميع الآلات.

وبهذا لن يحتاج الإنسان إلى المجتمع.. لن يحتاج إلى الاتصال بغيره من الناس.. فإن المجتمعات تقوم على احتياجات الأفراد بعضهم لبعض.. كل فرد يتمم عمل الآخر. وعمل

الجميع يكون سعادة المجتمع.. ولكن.. في عالم الغد سترتبط حاجة الإنسان بالآلة.. ويصبح المجتمع مجتمع آلات.. فالآلات محتاجة بعضها إلى بعض.. كل آلة تتمم عمل الآلة الأخرى.. ولن تقام حفلات اجتماعية، لأن الحفلات دوافعها حاجة الإنسان إلى التسلية.. وسيجد الإنسان في بيته كل أدوات التسلية دون حاجة إلى الاستعانة بغيره من الناس.. ستصبح الحفلات الوحيدة هي الحفلات التي تقيمها الآلات داخل المصانع !!..

معنى هذا.. أن العالم يندفع نحو المادية والآلية.

وما مصير الفنون ؟..

ستزدهر الفنون.. سيصبح الفن هو العمل الوحيد الذي يقوم به الإنسان.. فإن الإنسان في المجتمع الآلي سيتسع أمامه فراغ كبير.. الفراغ الذي كان يشغله بالسفر إلى الإسكندرية في سيارة أو في قطار.. وبالعمل في دواوين الحكومة.. والمصانع..و..و.. مما ستقوم به الآلات.. ولن يجد الإنسان مايشغله به الفراغ إلا الفن.. الموسيقى، و"الأدب، والرسم.. فإن الفن هو العنصر الوحيد الذي لا تستطيع الآلة مهما تقدمت أن تغتصبه من الإنسان.

ولكن الفنون ستتطور.. سيصبح لها لون آخر، فالفنون عادة هي تعبير عن القوة المسيطرة على المجتمع.. وبمعنى آخر.. القوة المسيطرة على المجتمع تؤثر على تشكيل الفنون فعندما كانت الطبقة الأرستقراطية هي المسيطرة على المجتمع كانت الفنون تعبر عن هذه الطبقة.. كانت الموسيقى هي موسيقى

الأوبرات التى يتكلف إخراجها آلاف الجنيهات وكانت الرقصة السائدة هى رقصة « الميناتير » رقصة ناعمة كسولة.. وكان الأدب كله أدباً رومانسياً.. ثم عندما سيطرت الطبقة الشعبية، سيطرت الفنون الشعبية.. موسيقى « الجاز ».. ورقصات الرومبا والتشاتشا.. والأدب الواقعى.. وعندما تسيطر قوى الحرب، تدور الفنون حول الحرب، وهكذا.

ومجتمع الغد، هو مجتمع الآلة.

ستكون الآلة هى المسيطرة.. ستكون أقوى من الإنسان وسيكون للإنسان أخلاق الآلة، وطبائع الآلة.. تماماً كما سيطرت طبقة العبيد فى روما، ففرضت تقاليدها وأخلاقها، وأصبح المجتمع كله له تقاليد العبيد، وأخلاق العبيد.

وبذلك سيتطور الفن، ويصبح له تقاليد الآلة، وذوق الآلة، وموضوع الآلة.



فكرت فى هذا كله وأنا أتخيل قصة يمكن أن تدور وقائعها بعد ألف سنة.

وتصورت أن المخترعات الحديثة يمكن أن تحيى الموتى.. وتجسدهم فى أجساد جديدة.

وليس هذا مجرد خيال.

إنه استنتاج.

فقد استطعنا أن نجمع الصوت من الفضاء ونجسده فى آلة الراديو.

واستطعنا أن نجمع الصورة من الهواء، ونجسدها فى آلة

التليفزيون.. بل إن التليفزيون استطاع أن يجسد الصورة بألوانها، ويجسدها مجسمة.. وأرواح الموتى هائمة فى الهواء.. لأن الروح لا تفنى.. لا شئ يفنى.. ومن المعقول أن تخترع آلات تجسد هذه الأرواح، فى أجساد جديدة.

وتصورت عودة بعض الموتى، ومفاجآتهم بالمجتمع الجديد.. ولكنى وجدت أن الفكرة قديمة سبق أن طرقت فى قصة « أهل الكهف »، و « حديث عيسى ابن هشام » !



والله.

ما مصير الإيمان بالله، إزاء كل هذه المخترعات ؟!

البعض يقول إن تقدم العلم سيزيد من اعتداد الإنسان بنفسه إلى حد أن يكفر بالله.

بالعكس.

إن إيمان الإنسان بنفسه.. سيزيد من إيمانه بالله الذى خلق هذه النفس.. وكلما كشفت النفس عن سر من أسرار الله.. بهرت.. وازدادت إيماناً به.

وأقوى ما تتمثل فيه قدرة الله.. الإنسان..

الفنـــان والنــاقـــد

للأديب الراحل كامل الشناوى رأى عن العـلاقة بين «الفنان» و «الناقـد» فـهو يرى أن هناك عـداء طبيعيـاً بين الناقد وبين المفكر والفنان.. فالمفكرون والفنانون يرون أنهم لو لم يـكونوا لما كان للنقـاد وجود.. فهم لا يخلقون الأثر الفنـى وحده، ولكن يخلقون الناقد أيضاً ! وإلا كيف يوجد الناقد إذا لم يجد ما ينقده ؟ ولهذا يؤلمهم أن يتعالى النقاد عليهم.. لأنهم خالقون، والنقاد مخلوقون.

وهذه وجهة نظر.

وأنا ككاتب تعـرض كثـيراً للنقـد - لى وجهة نـظر أخرى.. فأنا لا أومن بـأن هـناك عداء طبيـعياً بين الفـنان والناقد.. وإذا وجد هذا العداء فهو لا يكون عداء طبيعياً.. وإنما هو عداء نتيجة خطأ من الناقد أو الفنان.

وأنا أعتقد أن النقد - كـما يجب أن يكون - هو مساهمة فى العمل الفنى.

الناقـد ليس عدواً للفنان، ولا منفـصلا عنه.. ولكنه صـديق للفنان، ومتمم له، وعمله هو جـزء من العمل الفنى.. وقد عرف طائر « أبو قـردان » بلقب صـديق الفلاح، ورغم أبو قـردان لا

يشــترك فــي زراعة الأرض.. ولكن الفــلاح يزرع وأبو قــردان يلتقط من الأرض الديدان التى تضر الزراعة.

وكل ناقــد يســتطيع أن يســمى صــديقــا للفنان.. كل ناقــد يستطيع أن يكون أبا قردان !

وإذا كان قــد قيل عن النقــد إنه مرآة للفن..فــإن المرآة هى جزء متمم لمحــاولة خلق الجمال.. إنها تســاهم فى عملية الخلق نفــسـها والمرآة لا يمكــن أن تكون جــميلــة، ولا يمكن أن تتــقــدم فى فن الجمال، بغير مرآة.. والمهم أن تكــون المرآة صافية، ليست صدئة.. وليست كاذبة.. ليست كمرايا لونابرك التى تشوه الجمال.

والناقد فنان.. أو يجب أن يكون فنانا.. فإن النقد يعتمد على الذوق.. والذوق حــاسة فنيــة، إذا صقلت بالثــقافــة والدراســة، والتجربة، أصبح صاحــبها فنانا... وبذلك يكون الناقد فى نقده خالقاً وليس مخلوقاً.. تماماً كالفنان.. ولكن.

المشكلة ليــست هى مشكلة العــلاقة بين الفنان والناقــد.. ولكن المشكلة هى فى النقاد أنفسهم.. فالنقاد عندنا لم يستطيعوا بعد أن يرتفعــوا إلى مستــوى النقد الخلاق، ولم يستــطيعوا أن يتفــرغوا للنقد، ويبذلوا فيه من الجهد والدراسة والملاحقة، بحيث يساهمون مســاهمة فــعالة فى العمل الفــنى.. ومعظم النقاد عنــدنا اليوم هم كــتاب حــاولوا أن يكونوا فنانين، فلمــا فشــلوا أصبــحوا نقــاداً.. وأصبح النقــد بالنسبة لهم هو مــجرد تنفيس عن شهــوة الكتابة.. كمــا أن كثيراً من النــقاد ينقدون العمل الــفنى، لا لأنهم نقاد، لهم مؤهلات النقــد، إنما لأنهم مجــرد كتاب فى الصــحف.. والصحف عادة ترحب بالهجــوم، أكثر مما ترحب بالتأييد.. كمــا أن كثيراً من النقــاد يحكمون فى آرائهم بــشعــورهم الشخــصى أو علاقــاتهم الشخصية بالفنان، أكثر مما يحكمون مقاييس الفن نفسه.

هذه هي المشكلة.

وكـثيـرون من الأدباء يترحـمون على أيام نهـضة المعـارك الأدبيـة التي قـامت علـى النقـد.. أيام طه حـسـين، والعـقـاد، والمازني، وشوقي، وحـافظ إبراهيم.. و.. و.. والواقع إن الذين كانوا يسيطرون على هذه المعارك ليسوا هم النقاد لم يكن هناك تخصص في الإنتـاج الفني، وفي النقد.. كان طه حـسين يخلق عملا فنياً، وفي الوقت نفسه ينقد أعمال غيره.. وكذلك المازني.. والعـقاد.. ويحـيي حقي.. وكلهم.. ولو كـانت هذه المعـارك قد قامت بكل مـا كان فيهـا من عنف، وقسوة، وظلم، على أكـتاف النقاد وحدهم لا نتهت قطعاً بقـتل الحركة الأدبية الحديثة وهي في مهدها.. ولكن النهضة الأدبيـة اجتازت هذه المعركة بسلام، لأن الذين أثاروها كانوا فنانين، وكانوا يحـاولون بناء أنفسهم، بقدر ما يحاولون هدم غيرهم.

والدليل عـلى ذلك أن نهـضـة المسـرح تعـرضت لإرهاب مجمـوعة من النقاد، ليسوا فنانين.. أي ليـسوا ممثلين.. فكانت النتيـجة أن ضاعت نهـضة المسرح.. وكـذلك نهضة السـينما.. ولولا الجهـود التي تبذل هذه الأيام لاستـعادة نهضـة المسرح والسنيما، لاستطاع النقاد أن يقـضوا عليها إلى الأبد.. بجهلهم ولعدم اعتزازهم بدورهم في تشييد البناء.

وليس مـعنى هذا أن النـاقد يـجب أن يكون ذا إنتـاج فني.. بالعكس.. الناقد كلما تفرغ للنقـد واستطاع أن يرتفع بمستواه.. ولكن ما أريد أن أقـوله .. إنه لم يكن عندنا أبداً – وإلى اليوم – حـركـة نـقـدية بمعنى المسـاهمـة في العـمل الـفني.. والذين يتعرضون للنقد هذه الأيام ليست لديهم نية المساهمة في العمل الفني إما لأنهم يريدون.. وإما لأنهم لا يستطيعون !

[illegible]

إنى ذاهب إلى دير سانت كاترين، وفى قلبى رهبة، وفى عقلى خشوع.

إنى أحاول أن أجرد قلبى وعقلى.

أحاول أن أخلص إلى الله.

لابد أن الله سيكون هناك، قريباً منى.. فهناك التقى موسى بالله، وتلقى منه وصاياه العشر.

ولن ألتقى بالله كما التقى به موسى، ولكنى سأكون قريباً منه.. وأنا أعرف أن الله فى كل مكان.. إنه فى مكتبى بروز اليوسف، كما هو فى مكة، وكما هو فى باريس.. إننا لا نسافر إلى الله ولكنى كنت أعيش فى وهم.. وهم تثيره صورة دير ملقى فى الصحراء بعيداً عن الحياة.. ورهبان تبتلوا فى حب الله.. وجرس كنيسة يدق، ومئذنة جامع تنبثق من بين صخور الجبل.. وكان هذا الوهم يساعدنى على التجرد.. كنت فى حاجة إلى هذا الوهم حتى ارتفع بقلبى وعقلى إلى الله.. إلى الهدوء.. إلى سكينة النفس.. إلى الحب الأكبر.

وانطلقت بى السيارة تحملنى إلى وهمى. إننا نسير فى الصحراء.

لا طريق.. أن كل ما يرشدنا هو آثار عجلات السيارات التى سبقتنا.. والسيارات التى سبقتنا لم يكن لها فضل فى اكتشاف طريقها، إنما سارت بمحاذاة مجرى السيول، الذى يشق بطن الوادى.. أرشدها الله.. ولا شئ حولنا إلا عظمة الله.. الجبال الملونة الجرداء تطل علينا وتنظر إلينا فى قسوة كأنها تذكر كلا منا بخطيئته.. والرمال الغامضة تفرش طريقنا.. وصخور وحشائش.. وصمت.. صمت رهيب.. وأحاول وسط هذه العظمة أن أتوجه بقلبى إلى الله.. ولكن السيارة ترتفع وتنخفض كأن يداً قاسية تحاول أن تحطمها.. مطب.. ويسقط قلبى فى قدمى.. وأعجز عن التوجه إلى الله.

إننى وأنا فى طريقى إلى الله لا استطيع أن أنظر إلى السماء، وإنما أنظر إلى الأرض لأترقب المطبات، وقطع الصخور التى قد تصطدم بها السيارة.. والأسطى أنور يعرف الطريق.. يعرف كل مطب فيه، وكل صخرة.. وأحياناً يترك طريق السيارات، ويرتفع إلى طريق آخر، تجنباً لكثيب من الرمل قد تغرز فيه السيارة.. ورغم ذلك فقد غرزنا.

ونزلنا من السيارة نزيح الرمال بأيدينا من تحت العجلات، ونقطع الحشائش، ونفرشها فوق الطريق حتى تخفف من نعومة الرمل.. و.. اللى يحب النبى يزق.. وكلنا يحب النبى.. وعندما نسير فى بطن الوادى.. وادى « فار ان » ولكنه معروف باسم وادى « فيران » والجبال تلف وتدور حولنا، وتقسم الوادى الكبير إلى عدة وديان صغيرة.. وادى رمانة.. وادى الشيخ..و..و.. والأسطى أنور لا يكف عن الحديث عن

أبونا نيكوفورس.

إنى منذ عبرت القنال، وأنا أسمع اسم أبونا نيكوفورس.. فى نقطة الحدود حدثونى عن أبونا نيكوفورس.. وفى أبى زنيمة حديث عن نيكوفورس.. وفى أبو رديس.. و.. و.. إن أحداً لا يحدثنى عن الله، كلهم يتحدثون عن أبونا نيكوفورس.

وتمر بنا السيارة من بعيد.. شئ صغير يتحرك وسط هذا الصمت.

– مين دول يا أسطى أنور ؟

– دول بتوع الجراد يا أستاذ !

وبتوع الجراد هم رجال مقاومة الجراد، يطوفون بالوادى ليقتلوا الجراد قبل أن يصل إلى وادينا.. وادى النيل.. وسيارة جيب تقطع الطريق فى سرعة مجنونة.. والسرعة المجنونة فى الصحراء لا تزيد على ستين كيلو متراً.

– مين دول يا أسطى أنور ؟

– دول خبراء الفحم يا أستاذ.

وخبراء مناجم الفحم روسيون.. وهم ليسوا فى طريقهم إلى المناجم، إنهم مثل فى طريقهم إلى الدير.. وربما كانوا مثلى يبحثون عن الله.. حتى الشيوعيون فى حاجة إلى الله !

ويعود الأسطى أنور ليتحدث عن أبونا نيكوفورس !

وتقف السيارة ريثما تهدأ، وتخف سخونتها.. والوادى حولنا مغطى بقطع الصخور الملونة.. كل الألوان.. الأصفر والأخضر والبنفسجى والأحمر.. كأن الأرض « بالته » رسام اختلطت بها كل الألوان.. وأنزل من السيارة. وأهم برفع حجر من هذه الأحجار.. أمد يدى لألمسه كأنى أحاول أن ألمس عظمة الله.. وإذا بالأسطى أنور يصرخ بملء فمه :

– لا تقلب الحجر.
– ليه ؟
– قد يكون تحته عقرب.. أو تعبان.. أو طريشة !

و « الطريشة » نوع من الحيات.. قصيرة.. تقفز في وجهك.. وتلدغ.. كأنها تقبلك.. وقبلتها هي قبلة الموت.. ولا علاج ولا رحمة من قبلة الطريشة !!

وخيل إلى في لحظة إني لو صادفت عقرباً أو طريشة، فسأربت على ظهرها.. وأدللها.. أليست هذه من مخلوقات الله؟! وأنا أحب الله وأحب مخلوقاته.. هذا الحب الكبير.

ولكن يظهر إني أضعف من هذا الحب الكبير.

فقد سحبت يدى من فوق الحجر بمجرد أن سمعت صوت الأسطى أنور.. وأخذت أنظر تحت قدمى خوفاً من أن يكون هناك عقرب أو طريشة تزحف نحوى.. ثم عدت إلى السيارة لأكون أكثر أمناً !!

وبردت السيارة.

وعادت تلهث صاعدة في الوادى الكبير، نحو الجبل.. ولا أحد نلقاه في طريقنا.. لا شئ من الحياة سوى هذه الحشائش التى تنبت بين الصخور.. والحشائش تغزو كلما تقدمنا في جوف الصحراء.. إننى كلما رأيت حشائش اقتنعت أن تحتها ماء.. ماء قريب من سطح الأرض.. وإذا كان الماء قريباً، فلماذا تبدو الحياة بعيدة.. هنا في شبه جزيرة سيناء.. ربما لأننا أكسل من أن نبحث عنها.. عن الحياة !!

والحشائش تغزو أكثر.. وبدأنا نلتقى بأفراد من البدو.. أو «البدوان» كما يسمونهم.. وكل منهم يبدو كقطعة من الطبيعة.. كهذا الحجر.. كهذا الكثيب من الرمال.. كهذا الجبل إن كل

ما يحمله من مظاهر الحياة هو أنه يتحرك.

وبدوى يركب جملا، ويتمنطق بمجموعة من الأحزمة الجلدية يلفها حول وسطه وحول كتفه.. وينزل من فوق الجمل بسرعة، ويلوح بيده إلينا، وهو يصيح :

– سجاير.. سجاير !!

والأسطى أنور لا يريد أن يقف لنعطى للرجل سجاير !

ثم نصل إلى أول واحة.

اسمها الحصوة.

مجموعة من البيوت الصغيرة مبنية من الصخور.. نفس الصخور الملقاة في طريقنا.. وأبوابها مدهونة باللون الأحمر الفاقع.. وبئر خارج الواحة.. وبضع نساء فى ثيابهن البدوية يدلين فى البئر العميقة، شادوفاً يرفعن به الماء.. والنخيل يظلل البيوت.. وأشجار الزيتون.. ورجل يخرج إلينا، ويصافحنا.. و.. اتفضل شاى.. شكراً يا شيخ العرب.. ونساء ينظرن الينا من وراء الباب، ولا تكاد تلتقى عيوننا بهن حتى يختفين.. وأطفال يجتمعون حولنا.. وتحس أنك عدت إلى الحياة.. الحياة أيام سيدنا موسى.

وانحنى على طفل :

– اسمك إيه ياشاطر ؟!

– موسى..

ويخيل إلى أن تسعة أعشار أهل سيناء يحملون اسم موسى.. والبنات يحملن اسم : موسية..

وشيخ العرب بجانبنا ولا نكاد نبتعد عنه، حتى يرسل إلينا ابنه موسى، ليطلب منا سيجارة.

ونعطيه علبة سجاير.

ويتعجلنا الأسطى أنور.. إننا لن نستريح هنا.. يجب أن نصل إلى حديقة الدير.

ونصل إلى حديقة الدير، على أطراف واحة فيران.. وليس معنى ذلك أننا أصبحنا قريبين من الدير نفسه.. لا يزال بيننا وبين الدير ساعتان !!

ويفتح أمامنا باب خشبى صغير.

وندخل فى حديقة مزروعة بالعنب.. والعناقيد المليئة فوق رؤوسنا وتكاد تلامسنا.. وأشجار التفاح، والبرقوق والزيتون، تملأ الهواء بعبير حلو.. وخيل إلى أنى أخطو إلى الجنة.. والجنة ليست فى العنب والتفاح والبرقوق، ولكن فى هذا الهدوء الذى يستقبلنا، ويزحف على أعصابنا ويخدرها.. ويخرج إلينا قسيس جليل.

سمين.. وجهه هادىء.. وبين شفتيه ابتسامة هادئة.. وفى عينيه ذكاء.. ذكاء طيب.. ولكنك تحس أنه يستعمل هذا الذكاء كسلاح.. سلاح ماض.. سلاح قوى !

ويقودنا القسيس إلى خميلته وسط الحديقة.. فى وسطها مائدة وحولها مقاعد.. ويجلس القسيس فى بطء وكسل، كأنه ليس فى حاجة إلى أن يقوم مرة ثانية ونجلس حوله، والتفت.. فتصدمنى الدهشة.. إن فى أحد أعمدة تكعيبة العنب دفتر تليفون معلق.. دفتر تليفون !!

هل عندك تليفون يا أبونا !!

ويضحك أبونا بركليس.. لا، ليس عندى تليفون.. إنى أحتفظ بهذا الدفتر لمجرد قراءة الأسماء بين وقت وآخر.. وقراءة الأسماء تعيد إلى ذكر الحياة.

ويقدم لنا أبونا أقداح الشاى.. ويحدثنا.. وعندما نهم

بالتقاط صورة له، يختار بنفسه المكان الذى يقف فيه.. ويسرع ويأتى بقبعتة الدينية ويضعها فوق رأسه.. وتطول جلستنا معه، وكلما طالت اقتربنا من الحياة أكثر من اقترابنا من الله.. إنه يعيش وحده.. ليس معه أحد إلا خادم من البدو.. ليس معه ولا قسيس آخر.. ورغم ذلك فهو يضج بالحياة.. الحياة بكل زحامها.

والبيت الذى يقيم فيه أبونا يقع فى جانب من الخميلة.. وتدخل البيت.. إنه يلمع من النظافة.. وفى كل ركن منه فكرة.. اختراع.. قد يكون اختراعا ساذجا.. ولكنه اختراع.. خرطوم ليمد الماء إلى الحنفية.. وحبل تشده فيفتح الشباك.. و.. و.. وفى كل مكان لافتة مكتوبة باللغة الانجليزية.. لا تلق الأوراق هنا.. ضع المنشفة فى مكانها.. إلى الحديقة.. و... و.. وتحس أنك فى مكان سياحى، أكثر مما تحس أنك فى صومعة رجل دين.

وأبونا بركليس لا يهتم كثيرا بأسرار الدين.. إنه لا يزال بالنسبة لرجال الدين فى درجة «فوفيس» أى «مستجد» وهو لا يطمع فى أن يرتقى عن هذه الدرجة.. ولا يحاول.. إنه يكتفى من الدين بأن يكون رجلا طيبا.. وهو يتعمد أن يبتعد عن الدين ورجاله.. هنا أريح.. أنا هنا ملك زمانى.

ماذا أتى به إلى هنا ؟

ماذا جعل منه راهبا ؟

لقد كان منذ عام ونصف فقط مديرا لإحدى دور السينما فى الاسكندرية.. كان يعيش بعقله مع جريجورى بيك وجينا لولو بريجيدا.. ثم فجأة ترك السينما وجاء إلى الدير ولبس مسوح الرهبان.

لمـــاذا ؟

ويبتسم الأب بركليس ويقول باللهـجة العربية المكسرة: هنا مرتاح كثير!! ثم لا يزيد..

وأسأله، لأجره إلى الحديث عن قصته :

– هل كنت متزوجا.

ويتردد بركليس قليلا، ثم يقول :

– نعم.. كنت متزوجا.. وماتت.

– والأولاد.

– لا.. ليس عندى أولاد !

ولا تســتطيع أن تخــرج بشىء أكــثـر من هـذا من أبونا بركليس.. ولكن «البـدوان» يروون لك قـصة كـاملة.. إن لديهم عن كل راهب قـصة.. ربما كانت قـصة كـاذبة.. ولكنها قـصة والســلام.. إنهم يروون عن أبونا بركليس أنه كـان مـتزوجـا.. ولم تمت زوجته، ولكنها صـدمته صدمة عاطفيـة.. فبدأ يحاول أن ينسى.. بدأ يقـامـر.. وبدد كل مـا يملك.. وبعـدها جـاء إلى الدير.. ليجد الهدوء.

ونهم بالانصراف.. ويهمس الأسطى أنور فى أذنى :

– أترك له ثمن الشاى ؟

ودهشت.. دهشت إلى حد الذهول.. وقلت للأسطى أنور :

– كام ؟

– ثلاثون قرشا !

وأخـذ منى أبونا ثلاثين قـرشا، وكل مظاهـر التعـفف التى بدت عليه هى أنه أســبل عينيه.. وأحسست أكـثر إنى فى مكان سيـاحى ولست فى مكان دينى.. وضـاع منى إحـسـاسى بأنى قريب من الجنة.. قريب من الله.

وصاح وراءنا أبونا بركليس :

– سلموا لي على أبونا نيكوفورس.

– الله يسلمك.

وعادت السيارة تلهث صاعدة إلى الدير.. وسرنا فى طريق واحة فيران.. طرق ضيقة ملتوية بريئة من يد أى إنسان.. والنخيل يحيط بنا.. نخيل يتزاحم بعضه فوق بعض، ويصطدم بالسيارة.. وأشجار الزيتون.. وعناقيد العنب.. إنها جنة.. إنها أرض خصبة.. وعلى جانب الطريق مجرى ضيق يجرى فيه الماء.. من أين يأتي هذا الماء ؟

من ماكينة الشيخ موسى !

والشيخ موسى هو صاحب كل هذا النخيل.. وكل هذه الحدائق.. وعنده ماكينة تشد الماء من الأرض.. يديرها ساعتين فى اليوم، ويبيع ماءها للأهالى، ولحديقة الدير، وبعض حدائق متفرقة.. وذهبنا إلى الشيخ موسى.. إنه يقيم فى حديقة واسعة مسورة، تضم بيته وبيوت أولاده.. وعلى جانب من الحديقة دكان صغير علقت عليه لافتة كتب عليها «شركة وادى فيران للتجارة.. لصاحبها عبدالرحمن موسى وإخوته».. والدكان لا يحوى سوى مواد التموين، وبعض المعدات المنزلية الصغيرة.. ورأينا ماكينة الماء.. إن الماء قريب.. ستة أمتار وتصل إليه.. والشيخ موسى هو سيد وادى فيران لأنه يملك هذه الماكينة.. ويملك شركة وادى فيران للتجارة!!

لماذا لا تذهب إلى سيناء عشرات الماكينات، لتصنع فى سيناء عشرات من الأسياد.. إن الماء ليس قريبا فى واحة فيران وحدها، إنه قريب فى كثير من أنحاء شبه الجزيرة.. وقد أجريت هناك أبحاث اتضح منها أن أرض سيناء صالحة

للزراعة.. صالحة للحياة.. والمسئولية ليست مسئولية الحكومة.. إن أى جماعة من خريجى كلية الزراعة، يستطيعون أن يحملوا آلة مياه ويذهبوا إلى هناك ويصبحوا أسيادا.. وربما كان كل واجب الحكومة أن تسهل لهم مهمتهم.. أن تخفف من الإجراءات الكثيرة المعقدة التى تفرضها للانتقال إلى سيناء والإقامة فيها.

وقد سمعت حكاية عن الإجراءات الحكومية.. حكاية رجل يدعى سالم النيل حفر بئرا فى الصحراء قريبا من أبى زنيمة وأقام حول البئر حديقة كبيرة.. حديقة فاكهة ونخيل..

وكانت نسبة الملوحة فى ماء البئر كبيرة، ورغم ذلك استطاع أن ينبت الأرض، وبعد ثلاث سنوات جاء مندوبو الضرائب، وقدروا أرباح الرجل بأربعة آلاف جنيه.. طالبوه بها.. فترك لهم الرجل الحديقة بما فيها وانصرف !

ومثل هذه الإجراءات لا يمكن أن تشجع على تعمير سيناء.

وخرجنا من واحة فيران.. إلى وادى طرفة.

«والطرفة» هو اسم شجر يملأ الوادى.. وينبثق على فروعه مادة صمغية حارة.. هى «المن» التى جاء ذكرها فى الكتب المقدسة.. المن، والسلوى.. والتى يقال إن قوم موسى كانوا يعيشون عليها عندما تاهوا فى الصحراء.. ويجمع العربان أو البدو هذه المادة الصمغية، فى علب من الصفيح، ويتركونها فى الشمس حتى تسيح، ثم يبيعونها للسواح الذين يأكلونها تبركا.

لقد رأيت المن ولم آكله.. وبقى أن أرى السلوى، لعلى آكلها!

والطريق ممهد بعض الشىء.. والذى مهده هو سيسيل دى ميل المخرج السينمائى، عندما كان يخرج فيلم «الوصايا العشر» وكلفه تمهيده عشرين ألف جنيه!!

ووصلنا إلى وادى البوبيب.. والجبال تضيق حولنا، وتفتح لنا بابا ضخما نخرج منه إلى الوادى الفسيح.. وعلى جنبات الوادى حدائق صغيرة.. كل حديقة لا تزيد على نخلة وشجرتين.. وفوق تل صغير قبر مطلى بالجير الأبيض.. إنه قبر النبى صالح.. هل سمعت عن النبى صالح ؟ ولا أنا.. وهو على كل حال نبى مشكوك فى نبوته.. ويقال إنه مجرد الجد الأول لإحدى قبائل البدو التى تقيم فى المنطقة.. وكل رجل مبروك فى سيناء لا يسمى «شيخا» ولكن نبيا.. وبجانب القبر مظلة يجتمع تحتها الأهالى فى موسم زيارة النبى صالح، وينحرون الذبائح.

وبعد قليل.. قبر آخر.. إنه قبر هارون، أخو النبى موسى، وترجمانه إلى قومه.

ثم يدور الجبل مرة واحدة.. ونفاجأ برؤية الدير فى أحضان جبلين من الصخر.

لقد وصلنا..

وصلنا بعد خمس ساعات قضيناها نصعد الجبل.

وارتجف قلبى من الرّهبة.. إنى مقدم على التجربة الكبرى.. تجربة مواجهة نفسى، لأبحث فيها عن الله.

والسيارة تصعد، وتئن، كأنها تزفر آخر أنفاسها.

والدير يبدو كقلعة حربية من قلاع القرون الوسطى.. والمكان الذى أقيم فيه يبدو كأن قائدا حربيا، هو الذى اختاره، وليس رجل دين.. والروعة التى تحيط به، هى روعة التاريخ، وليست روعة التبتل فى حب الله !

وكنت أعتقد إنى سأدخل الدير فى قفص معلق فى حبل يشده الرهبان من أعلى.. كما قرأت فى الكتب.. ولكنى دخلت

من باب واسع، وكثير من الأولاد يتزاحمون حول السيارة ليحملوا حقائبنا.. كأننا وصلنا إلى فندق هيلتون!

ودخلت وأنا احتفظ برجفة قلبي.. إني أريد أن يظل قلبي مرتجفا، لعل رجفته تساعدني على الارتقاء إلى الحب الكبير.. وانحنيت لأمر من باب منخفض عتيق من الحديد السميك.. كأني أدخل إلى احدى مقابر الفراعنة.. ثم واجهت فناء الدير.. وواجهتني لافتات مكتوبة بالانجليزية.. اتجه إلى اليمين.. المكتبة.. إلى الكنيسة.. و.. و.. إن هذه اللافتات تعيدني إلى الحياة.. لا أظن أن في السماء لافتات مكتوبة بالانجليزية!!

واستقبلنا راهب نشط.. أنفه أحمر.. وعيناه مغضنتان تطلان من تحت نظارة سميكة، وينطلق من بين تجاعيدها بريق نشط.. غاية النشاط.. وجبين عال يشع بالذكاء.. ذكاء لا يريح.. ذكاء يكاد يثقب رأسك ليصل إلى أفكارك.. وقامة قصيرة، تتحرك بسرعة.. سرعة الأرنب أو سرعة الغزال.. أو سرعة الثعلب!

إنه ليس راهبا..

إنه أبونا نيكوفورس.

مدير إدارة الدير.. وأشهر رجل في شبه جزيرة سيناء..

وقد كان نيكوفورس صاحب ورشة ميكانيكية وكهربائية، ثم دخل الدير.

لماذا يا أبونا ؟

حبا في الله.

ثم يميل على أذني ويهمس : بيني وبينك المطران أكل مخي!

وكنت أعتقد أن أبونا قد خصني بهذه الهمسة، ولكني اكتشفت أنه يهمس بها في أذن كل من يزور الدير.. بل إني

قرأت هذه الهمسة فى كتاب عن الدير أصدره زائر قبلى.

وإذا كــان المطران قـد أكـل مخ نيكوفــورس.. فـقـــد أكل نيكوفـورس الدير.. استطاع أن يسـيطر عليه.. وأن يملى عـليه ذكاءه.. وأداره بطريقة حديثة، وخصـص معظم أجنحته لإقامة السياح.. وأقام فيه مـحطة لتوليد الكهرباء.. ولا تستطيع إلا أن تبـدى إعـجابـك بأبونا وحـسـن إدارته.. ولكن.. لقـد بدد أبونا الطابع الدينى لـلدير بهذه المـستـحـدثات.. إنك لا تسـتطيع أن تتوجـه إلى الله وصوت محطة توليـد الكهرباء يطن فى أذنيك.. إنك هنا تشعر بقدرة نيكوفورس أكثر مما تشعر بقدرة الله!

وأين الرهبان؟

إنهم هناك فى الجنـاح الآخر.. ولا يقـيـمـون فى صـوامع، ولكن فى حجـرات تضاء بالكهرباء.. وهم أربعة عـشر راهبا.. فقط.. ربما كـانوا موظفـين فى الكنيسـة أكثر ممـا هم رهبان.. فهم يتقاضـون مرتبات.. أربعة جنيهات فى الشـهر.. وينتقلون بين الأديرة المختلفة، بأمر الكنيسـة تماما كما ينتقل الموظف من مكان إلى مكان بأمر حكومته..

لا..

لقد انقضى عهد الرهبان الذين كنا نقرأ سيرهم.

ربما لم يعد الإنسـان فى حاجة إلى الرهبنة والتـجرد.. ربما اقتنع الإنـسان بأن الله قد وهبـه العقل والإرادة ليـعيش بهـما، وليس من حقه أن يتنازل عن عقله وإرادته، ليختبىء من الحياة خلف جدران دير.. بل ربما كـان الدافع الذى أتى بالرهبان إلى هنا.. إلى هذا المكانى النائى.. قـد انعدم.. فـقد جـاءوا منذ ألف وستمائة عام هربا من الاضطهـاد الذى كان يصبه عليهم أعداء المسيحية.. ولم يـعد أحد يضطهد المسيحية الآن، فـما حاجتهم إلى الدير !!

وقادنا أبونا نيكوفورس إلى الحجرات التى خصصها لنا.. حجرات فندق كامل.. وكل ما يميز الدير عن الفندق، أنك يجب أن تحمل طعامك معك.. وفى وسط الحجرات مطبخ وطباخ يطهو لك الطعام الذى تحمله، ويصنع لك القهوة والشاى.

البيت ١٠٠ قرش !

الصعود إلى جبل موسى على جمل ١٠٠ قرش!

الصعود إلى جبل سانت كاترين على جمل ١٥٠ قرشا!

الراهب الذى يصحبك فى الصعود أجره ١٠٠ قرش!

وتعليمات أخرى..

نفس القائمة التى تجدها معلقة على باب حجرتك عندما تقيم فى فندق شبرد!

واستأذن أبونا نيكوفورس ريثما يصاحب فريقا آخر من السواح.. ووقفت فى نافذة حجرتى أطل على الجبال الضخمة التى تحيط بى.. إنى أحاول أن أسكت عقلى.

لا أريد أن أفكر.. ولا أريد أن أنتقد.. اسكت يا عقل.. إنى أريد أن أكون عاطفة خالصة أرتفع بها عن الدنيا وأصل بها إلى الله.. إن الارتفاع بالعاطفة أسهل من الارتفاع بالعقل.. ولكن.. كلما نام عقلى أيقظه صوت وابور الجاز المنبعث من المطبخ.. لن ينام عقلى إلا إذا سكت وابور الجاز.. ووابور الجاز لا يسكت!!

ونزلنا نطوف بالدير يصحبنا أبونا نيكوفورس.. نطوف بالأقبية القديمة.. والممرات المنخفضة.. ثم دخلنا حجرة واسعة رصت فيها جماجم.. وعظام أذرع وسيقان.. وأذهلتنى الدهشة والرهبة.. ولكن الدهشة والرهبة ما لبثتا أن زالتا.

كما لو كنت أنظر إلى كوم من البطيخ فى دكان فكهانى!!

إن البســاطة التى رصت بها هذه الجمـاجم والعظام تنسيك رهبة الموت!

وهى جـماجم وعظام الرهبان الذين ماتوا فى الديـر.. وقد جمـعت بهذا الشـكل، لأن أرض الدير صـخـرية، ويستـحيل أن يحفر فيها كثير من المقابر.. فاكتفوا بقبرين اثنين يدفنون فيهما من يموت، ويظل فى القبر ثلاث أو أربع سنوات، إلى أن يتحلل ويصبح عظاما، فينقلوا العظام إلى الحـجرة ويخلو القبر لقادم آخر!!

ودخلنا الكنيسة.

رائعة.. رائعة.. إنه شىء لا يصدق!

والروعة هى روعة الفن.

والفن عبادة.

إن الفنان الذى قضى من عمره سنوات وسنوات يصنع هذه الأيقونة.. أو هذه اللوحة.. لابد أنه كان يتعبد إلى الله.. إن صدق الفنان وجـهـده هو عـبادتـه.. وربما لن أصل إلى الله.. إذا كنت فنانا.. إلا عن طريق قلمى.. إلا عن طريق كلمة صادقة، أو قصة صـادقة أكتبها.. ربما كان هذا هو طريقى الوحيد إليه!

وفى الكنيسة كثير من الذهب، والفضة والجواهر.. كأنك فى مقبـرة توت عنخ آمون.. شىء لا يقدر بالملايين قـدمه الأباطرة والأغنياء على مر السنين..

إن الأغنياء يتعبدون إلى الله بأمـوالهم.. والفنانون يتعبدون بفنهم.. والفقراء !؟ إنهم لا يملكون إلا قلوبهم!

وكنيسة أخرى.. كنيسة العليقة.. والعليقة هى الشجرة التى أضاءها الله أمام موسى وخاطبه من ورائها وقد أقيمت الكنيسة فى مكانها..

ووقف أبونا يطلب منا بلغته العربية المكسرة، أن نخلع أحذيتنا.. ويشرح لنا لماذا :

– ربنا كلمتو موسى.. يا موسى شيل المنتوفلى.. هنا مكدس! (أى مقدس).

وأبونا يقص الآية التى وردت فى الإنجيل :

«يا موسى اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة».. والآية التى وردت فى القرآن ﴿فلما آتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾.

والكنيسة صغيرة.. مريحة.. وكادت الراحة تزحف على أعصابى، لولا أن بهرنى الفن.. الفن المرسوم على الجدران، والمدلى فى الأيقونات.. إن الفن يلهيك عن الله، بقدر ما يذكرك به.

وعندما أطل من نافذة أخرى على الجبال التى تحيط بى.. ماهذا؟ إن فى وسط الجبل الصخرى تنبثق شجرة صنوبر ضخمة.. ماذا أتى بهذه الشجرة إلى هنا. من أنبتها ؟! لقد زرعها الرهبان منذ خمسمائة سنة.. وفوق كل قمة من قمم الجبال. صليب ضخم منصوب أقامه الرهبان منذ خمسمائة سنة.. إن قوة الإيمان كانت ـ زمان ـ تزرع الشجر وسط الصخر.. وتنصب الصلبان فوق القمم. وكل شىء فى الدير صنع منذ خمسمائة سنة.. أو منذ ألف سنة أو منذ الف وستمائة سنة.. أيام الإيمان بالله.. أيام كانت العقول لا تشغلها المذاهب الاجتماعية والسياسية.. فقط الإيمان بالله.. ولا شىء صنع حديثا فى الدير إلا المولد الكهربائى الذى استورده أبونا نيكوفورس.. وصعدت إلى الشجرة.. وبجانبها صخرة تنز

قطرات من الماء.. قطرات صغيرة كالدموع.. إن هذه الصخرة تبكى طوال العام.. لماذا تبكى.. ومن أبكاها.. ومن أين جاءت هذه الدموع.. قد يكون فى علم الجيولوجيا تفسير لكل ذلك.. ولكنى لا أريد أن أسمع تفسيرا علميا.. أريد فقط أن أملأ قلبى بالإيمان.. الإيمان بقدرة الله!

ومكتبة الدير.. إن كل كتاب فيها يعتبر تحفة أثرية تساوى كنزا.. وفيها الرسالة التى أرسلها النبى محمد إلى رهبان الدير يؤمنهم فيها على حياتهم وأموالهم.. وشهد على هذه الرسالة أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب.. وكثير من الصحابة.. وقد استولى السلطان التركى على أصل الرسالة وترك صورة منها للرهبان.

وجلسنا فى المساء يحدثنا أبونا نيكوفورس عن أيام الاعتداء.. لقد جاء موسى ديان إلى الدير، واتخذ منه ثكنة للبوليس الحربى.. واستقبله الرهبان برؤوس مرفوعة.. إنهم فى حماية الله.. فى حماية الكنيسة.. لن يستطيع أحد أن يمسهم.. ورغم ذلك فقد فتش اليهود الدير بحثا عن الجنود والضباط المصريين.. فتشوا فى كل مكان.. ونسوا أن يفتشوا مكان الطاحونة المهجورة.. وفى الطاحونة المهجورة كان يقبع أحد عشر جنديا مصريا وضابطان، منسحبين من الطور.. وجاء الليل.. والبوليس الحربى الإسرائيلى يحرس أبواب الدير.. وفتح أبونا نيكوفورس بابا سريا قديما تسلل منه الجنود المصريون، وصحبهم بدوى فى طريق مجهول.. إن الجبال التى تبدو أمامك كأنها حائط مسدود، لها أبواب وممرات يعرفها البدو.. وقد صحبوا جنودنا فيها حتى أوصلوهم إلى مواقعهم.

وقصة أخرى.

جـاء أحـد البـدو إلى أبونا نيكوفـورس وأبـلغـه أن جنود إسـرائيل سرقـوا إحـدى عنزاته.. كـان يرعاها عـندما وقـفت بجـانبه سـيارة إسرائـيلية، ونزل منهـا بعض الجنود الأبطال، وخطفوا عنزة!

وذهب أبونا إلى القائد الإسـرائيلى.. إن كل هؤلاء البدو فى حماية الدير، وهو يطالب برد العنزة إلى صاحبها.

وقال القائد الإسرائيلى إنه سيحقق، وإذا اتضح من التحقيق أن القصة كـاذبة، فإنه سيعتقـل الرجل الذى أبلغ عن السرقة، وسيأمر بإعدامه قدوة لبقية الأهالى وفى نفس الوقت سيعتقل أبونا نيكوفورس حـتى لا يعود إلى تشـجيع البـدو على تـحدى جنود الاحتلال .

ووافق أبونا.

وذهب مع القـائد إلى موقع الجنود، وبدأ القـائد التحـقيق.. وأنكر الجنود.. ولا شىء يـثـبت عليـهم التـهـمـة.. وارتفـعت ابتسامة الشماتـة على وجه القائد.. وأحنى أبونا رأسه قليلا ثم قام ولف حـول المواقع وعاد يحـمل عظام العنزة، التى تخلفت بعد أكل لحمها، وألقاها أمام القائد.. قائلا : الذى أعلمه أن ليس فى تموين القوات الإسرائيلية لحم المعيز!

واختفت شماتة القائد الإسرائيلى، وأحنى رأسه.

وجاء الليل وأبونا يحدثنا.

والقمر..

والهـدوء.. الهـدوء يارب.. هدوء النفس.. ولكن فى الغـرفـة المجاورة.. فريق من الـسواح يسكرون، ويقهقهـون.. ويطلقون نكات خارجـة.. وأبونا ساكت.. إنه يؤمن بأن قليلا من الخـمر

يصلح المعدة.. و«القليل» مسألة نسبية يختلف فيها الأفراد!

أين المفر ؟!

أين المفر إلى الله.

لعلى أجد المفر هناك.. فوق قمة جبل موسى.. بعد أن أصعد ألف قدم!

واتفقت مع أبونا على أن يعد لنا الجمال لنصعد بها فى صباح اليوم التالى.

وأيقظنى «ميخا» في الساعة الخامسة.. و«ميخا» بدوى يعمل فى الدير.. ويأخذ نظير عمله كمية من الحبوب ومن الزيت.. واسمه «صالح» ولكن الرهبان ينادونه.. ميخا!

لماذا.. لا أدرى!

ووجدنا فى انتظارنا راهبا شابا، يعلق على كتفه حقيبة صغيرة.

أين الجمال ؟

ولم يرد الراهب الشاب.. إنما سار أمامنا وسرنا وراءه.. وبدأنا نصعد الجبل.. وكنت أصعد فى خطوات نشطة.. وابتسامة فوق شفتى.. وقلبى ممتلئ بالبشر.. إنى صاعد إلى القمة التى صعد إليها النبى موسى، ليخاطب ربه، ويتلقى وصاياه.

وفتح الراهب حقيبته وناول كلا منا قطعة من الحلوى.. وازددت بشرا.. لابد أن الراهب حسب حساب كل شىء فى رحلة الصعود.

ومضت نصف ساعة ونحن نصعد.

والراهب أمامنا يسير فى خطوات سريعة، ويقفز كالعنزة وبدأ صدرى يتهدج.

سأستريح.
لا.. لأستمر.
وملأت قلبى بذكر الله.. وصعدت.
وصدرى يزداد تهدجا.. إنى ألهث.. أنفاسى تتمزق.
وجلست على صخرة، وأنا أهمس
– عطشان يا أبونا!!
وفتح الراهب حقيبته وأخرج زجاجة ماء فى حجم بزازة الطفل.. إنها كل ما يحمله من الماء.. ونحن خمسة رجال.
وأخذ كل منا قطرة بلل بها شفتيه.
وعدت أذكر الله.. وشددت قامتى.. وعدت أصعد فى خطوات قوية.. إنى أريد أن أقابل الله قويا.
والوادى يبتعد من تحت أقدامنا.
والقمة لا تزال بعيدة.. بعيدة.
وأنا لا أزال أصعد.
وبدأت أضعف.. بدأت أخاطب الله فى توسل.. وضعف.. يارب أعنى.
وألهث.. ألم فى رئتى.. لا.. إنى لن أستطيع أن أستمر.
وسقطت على الأرض.. ثم جلست.. ولكنى رقدت.. وصدرى كالمنفاخ المثقوب.. وأنفاسى كالفحيح.
وتوقف الركب.
والراهب متعجل.. إنه لا يتعب.. إنه حتى لا يعرق.
وقمت من رقدتى.. وركبتاى ترتعشان.. وألم.. ألم يحرق أعصابى.. وشفتاى جافتان.
عطشان يا أبونا.
ودارت علينا البزازة.

ورقدت مرة ثانية على الأرض.. وأبونا يتعجلنى.. ثم قمت.. وبدأ الألم يدفعنى إلى الندم.. الندم على هذه الرحلة.. ورغبتى فى الوصول إلى الله تضعف . إن الله فى الوادى كما هو فى القمة.. فلماذا أتعب نفسى كل هذا التعب.

عطشان يا أبونا.

آسف.. لم يعد معى ماء.

ونكست عينى فى يأس.

ومضت ساعتان ونحن نصعد.. أرقد وأقوم.. وشفتاى بدأتا تتورمان من العطش.. وأحسست كأنى أعاتب الله لأنه يكلفنى كل هذه المشقة.

ووصلنا إلى مكان من الجبل تبدأ عنده القمة الصخرية.

إننا نصعد على سلالم نحتها الرهبان فى الصخر.. منذ خمسمائة سنة.. وكل سلمة فى ارتفاع حجر من أحجار الهرم.

كم سلمة يا أبونا.

٧٥٠ سلمة.

تصور أنك ستصعد على قدميك ٧٥٠ سلمة من سلالم عمارة.. لا سلالم كل منها فى ارتفاع حجارة الهرم.

وفكرت فى العودة.

إنى لن أستطيع.

ولكن. لا.. لن أعود.. حتى لا يشمت فى أبونا!

وبدأت أصعد.. ربما صعدت عشرين سلمة، ثم ألقيت نفسى راقدا على الصخر.. رئتاى.. صدرى.. إنى أحس بدمى يكاد ينبثق من أنفى.

وأغمضت عينى.. ثم فتحتهما فجأة وأنا أشعر بشعور جارف من التحدى .. تحدى الجبل .. تحدى هذه السلالم ..

لم أعد أفكر في الله.. ولم أعد أحس به.. كل ما أحس به هو التحدي.. معركة.. معركة بين الإنسان والجبل.

وبدأت أصعد.. أحيانا كنت أصعد على قدمي ويدى.. وقلبى يتمزق.. وأنفاسى تفح كالمنفاخ المثقوب.. ثم أقوم وشعور التحدى يملؤني.. يجب أن أصل.. يجب أن أصل.. ووصلت.

وفوق القمة كنيسة.. على بابها جرس كبير يتدلى منه حبل.. وأمسكت بالحبل وقرعت الجرس.

قرعته مرة وأنا أهتف باسم ابنى محمد.

وقرعته مرة ثانية وأنا أهتف باسم ابنى أحمد.

وقرعته مرة ثالثة وأنا أهتف باسم زوجتى.

لا أدرى لماذا.. ربما كنت أريد أن أعلن لهم انتصارى على الجبل.. وربما خيل لى أنى أقرع لهم جرس السماء لعلها تفتح لهم أبواب السعادة.

ووقعت على الأرض مغشيا على.. تقريبا!

عطشان يا أبونا.

لا ليس هنا ماء.. إن الذين بنوا الكنيسة ليذكروا الله، نسوا الإنسان فلم يصنعوا له الماء.

وشفتاى تزدادان تورما.

وأبونا يتعجلنى لنعود إلى الدير.. وصرخت فيه، وقد نسيت كل شيء إلا إرهاقى.

– لا يا خواجه.. دعنى أسترح.

واسترحت.. ربع ساعة فقط.. كل ما سمح لى به أبونا من راحة.. وقمت ودخلت الكنيسية وأوقدت فيه الشموع.. وبجانب الكنيسة جامع مهجور مهدم.. قرأنا فيه الفاتحة!

وأنفاسى الممزقة تبعدنى عن الله.

وعدنا ننزل.

نزلنا الـ ٧٥٠ سلمة.. ثم اتجهنا إلى طريق آخر من الجبل.. طريق ينزل رأسيا فوق الصخر.. وكله سلالم.. كم سلمة يا أبونا.

٣٨٠٠ سلمة..

تصور أنك تنزل ثلاثة آلاف وثمانمائة سلمة على قدميك.. وكل سلمة فى ارتفاع أحجار الهرم.

لا مفر.. يجب أن ننزل.

وأحسست بحالة عصبية تنتاب ركبتى.. إنى لا أستطيع أن أقف عليها.. ولكنى أندفع نازلا.. وأبونا يسبقنا ويقفز فوق السلالم فى مرح.. إنهم يسمونه فى الدير.. فأر الجبل!

والعطش..

هل جربت العطش!!

إنك تحس بشفتيك تتورمان، حتى كأن كل وجهك أصبح شفتين. وسيخ من النار يمتد فى حلقك ويمتد حتى صدرك.. ومعدتك تنقبض كأنها تذبل.

إنه عذاب.. عذاب.

والسلالم تلف حول الصخور.. ثم تصل فجأة إلى فناء واسع فى وسطه شجرة صنوبر ضخمة.

وكهف.. وبئر.

ماء..

وأزحف على يدىّ وقدمىّ نحو البئر.. إن فيه ماء..

وألقيت حجرا لأتأكد أن فيه ماء.. ماء بعيد.. ولكن ليس هناك حبل ولا وعاء أدليه فى البئر لأشد الماء.

لا رحمة لى من العطش.

والكهف كان صومعة راهب.

وعندما ننزل.. ونمر على صوامع الرهبان المقامة بين الصخور.. رهبان زمان.. أيام الإيمان.. ولم يكن هؤلاء الرهبان يكتفون بالإقامة فى الدير، بل كانوا يصعدون إلى الجبل ويقيمون فيه.. إمعانا فى العزلة.. وفى التقشف.. وفى التجرد من الحياة.. والاقتراب من الله.

ولكنى لا أحس بالله.

إنى أحس بالتعب.

إنى أقول يارب.. ولكنى لا أحس بندائى يتجاوب فى صدرى.. إنى لست مخلصا فى ذكر الله.. لست متجردا له.. إن كل ما أريده هو شربة ماء.. ومكان أنام فيه.

ووصلنا..

إلى الدير..

وسقطت على الباب.. لم أستطع الوصول إلى حجرتى.. وجاءوا لى بماء.. وشربت.. شربت كثيرا.. ثم شربت أكثر.. وقمت يساندنى أبونا حتى وصلت إلى حجرتى.

ونمت.

لقد صعدت إلى القمة.. نعم صعدت.. ولكنى لم ألتق بالله.. إنما التقيت بالتعب والعذاب.

وهذا الصعود والهبوط يقطعه الرجل العادى عادة فى نهار كامل.. فى تسع ساعات.. ولكن أبونا.. فأر الجبل.. جعلنا نقطعه فى خمس ساعات..

سامحه الله..

وقمت من النوم كأنى أقوم من مرض.

ضعيفا.. مسترخيا.

وأحـــسـت فى ضـعـفى .. بـهـدوء النفس.. بالسـكينة.. باقـترابـى من الله.. إن الإنسان لا يقـتـرب من الله إلا إذا أحس بضعفه !



وكتبت فى دفتر زيارات الدير :

«جئت أبحث عن نفسى»!

هل وجدتها؟

لا...

ما هى المــرأة ؟ من هو الرجـل الذى تعجب به المرأة الحديثة؟

مصطفى مـحمود يقـول إن المرأة لا تعجب إلا بالرجل الشـرير.. الرجل الذى يستطيع أن يـبرر لهـا الخطـيـئـة.. ويطلق الحب إلـى آخـر حـدود الانحـلال.. ويمنحـها مع سـاعة سـعـادة عشـر سـاعـات من الألم الرجل الذى يشـعـرها فى كل دقـيـقـة أنه سيتـخلى عنها.. وكل ما تشتـرطه المرأة فى هذا الرجل الشرير هو أن يكون خفيف الدم.

ويدلل مـصطـفى على صـدق رأيه بأن المثل الأعـلـى للرجل أمـام المرأة الحديثـة هو جـيمس ديـن وكل أدوار جيـمس دين السينمائية تمثل رجلا شريرا.

أما أنا فكان من رأيى أن المرأة الحديثـة والمرأة القديمة على السواء تعجب بالرجل القوى والقـوة ليست قوة الشر إن الشر شذوذ وليس قوة كما أن القوة ليست قوة عضلات فالعضلات تمثل فى الرجل جانب الحيوان.. إنما القوة هى قـوة الشـخصـية

وقوة الخلق.. وجميع الرجال الذين تهافتت عليهم النساء على مر التاريخ كانوا على خلق دون جوان.. وكازانوفا.. وروميو.. و.. و.. كلهم يمثلون قوة الشخصية وقوة الخلق.

إن نظرة المرأة للرجل لا تختلف عن نظرة الرجل للمرأة والرجل قد تثيره المرأة الشريرة ولكن المرأة الفاضلة تثيره أكثر فيتمناها ويشتهيها ويطرق كل الطرق إليها إلى أن يجد طريق الزواج.. إن الفضيلة أكثر إغراء من الشر سواء في الرجل أو المرأة.. إن الفضيلة شيء صعب.. شيء نادر.. ومن هنا تستمد اغراءها.

ومن هنا تتهافت المرأة على الرجل الفاضل أكثر من تهافتها على الرجل الشرير والرجل الشرير قد ينجح مع امرأة أو اثنتين ولكنه لا يستطيع أبدا أن يصل إلى درجة تهافت النساء عليه.

وقاطعني مصطفى محمود : وجيمس دين يا أبو الحسن.

قلت : إن جيمس دين لا يمثل أدوار الشر.. إنه يمثل دورالشاب الذى يعانى من عقدة نفسية : قلبه على أمره.. شاب مريض يثير عطف البنات، ويثير فيهن غريزة الأمومة فيتعلقن به.

وعاد مصطفى محمود يسألنى : وكيف تحدد الرجل الفاضل !

قلت : إني أكتفي بالمبادئ العامة للأخلاق.. الشهامة والصدق والأمانة ومواجهة المسئولية.. إلخ.. ولا تهمنى المظاهر فإنى أعرف رجالا مظهرهم فاضل وأخلاقهم زفت، وأعرف

رجالا مظهرهم زفت وأخلاقهم فاضلة.

وقال مصطفى محمود : إن أكثر الرجال نجاحا مع النساء في نظرى هو محمد عبدالوهاب.. وعبدالوهاب لا يمثل الفضيلة كما تعنيها أنه لا يمثل إلا نفسه .. إن مبادئه وأخلاقه هى نفسه.. إنه أشد الرجال أنانية.

قلت : إن النساء لا يتهافتن على عبدالوهاب ولكنهن يتهافتن على فن عبدالوهاب وعدد الرجال الذين يتهافتون على فن عبدالوهاب لا يقل عن عدد النساء.. إن عبدالوهاب موضوع آخر.

واستمرت المناقشة بين مصطفى محمود وبينى من الاسكندرية حتى القاهرة..

ولم يقتنع مصطفى برأيى ولم أقتنع برأيه.. احكموا بيننا.

صـــورة فى الصيـــف

ليلة من ليـالى الصـــيف.. والهـواء راكد ثقـيل وعرق لـزج كقطرات الصـــمغ وأجســـاد مرتخـية مـفككة وقـطع من قـشـر البطيخ مـتـناثرة على الأرض وبائع التـرمس واقف بعربتـه بعيـدا وقد كف عن النداء وأسدل جـفنيه على عـينيه.. وكانـوا جلوسا فى استرخاء على مقـعد حجرى فى شارع الكورنيش، والنيل تحت أقدامهم وقد فتحوا قمـصانهم عن صدورهم وشمروا أكمامهم وشبابهم يتنفس فى ضيق فوق وجوههم.

وقال رضوان :

– كان لازم الحكومة تصرف، للمـوظفين فى الصيف علاوة بطيخ.. ده أنا ماهيتى كلها راحت على البطيخ.

وقال محمد :

– نفـسى أروح اسـكندرية.. يا سـلام على اسـكندرية فى اليومين اللى ذى دول..

وقال منصور :

- تيجو ننتحر.

وقال ممدوح :

- أنا نفسى ألاقى بنت تحبنى وأحبها.. بنت مالهاش أب ولا أم، وتتمشى معايا على الكورنيش لغاية الصبح.

وقال رضوان :

- الماهية بتخلص يوم عشرة فى الشهر.. حق الحكومة تقبضنا يوم بيوم علشان الماهية ما تخلصش.

وقال منصور :

- تيجو ننتحر !

وقال محمد :

- لازم الشعب يصيف فى اسكندرية على حساب الدولة.

وقال ممدوح :

- الواحد لو حب بنت تقوله اتجوزنى.. ولو حب يتجوزها تقول فين المهر.. يدور على المهر مايلاقيش.. يبقى لا عمرنا حانحب، ولا نتجوز.

وقال منصور :

تيجو ننتحر!!

وسكت الأربعة برهة ثم قال رضوان فجأة : وننتحر إزاى ؟

وقال محمد :

- أنا ما انتحرش إلا فى البحر الأبيض المتوسط !

وقال ممدوح :

- ما هو الانتحار كمان لازم له فلوس !

وقال منصور :

- ولا فلوس ولا حاجة.. الانتحار أرخص من البطيخ وأرخص من الترمس.

وسكت الأربعة.

ونظروا في مياه النيل طويلا وهم صامتون.. ثم قاموا يجرون أجسادهم المرتخية المفككة.. والهواء راكد ثقيل.. وعرق لزج كقطرات الصمغ وقشر البطيخ وبائع الترمس وقد فتحوا قمصانهم عن صدورهم.. وشبابهم يتنفس في ضيق فوق وجوههم!

حــوادث وخــواطــر

حاولت أن أكــون طبيبا نفــسيا.. فقــد جاءتنى فتاة تشكو من ارتباك حياتها.. حياتها فى البيت.. وحياتها فى العمل وحــياتها مع الرجل الذى تحبه وتركتها تتكلم.. تكلمت كثــيرا وفى أدق شئونها.. وقالت ضمن حديثها إنها تحب أكل الحصرم وأكل ثمار المانجو الخضراء قبل نضوجها.. وقاطعتها :

– ألا تشعرين بلذعة الحصرم وأنت تأكلينه؟!

قالت وهى تطوف بلسانها فوق شفتـيها كأنها تشتهى فدانا من الحصرم :

– أحس بهــا.. إن جســدى كله يتقلص عندمــا أضع حبــات الحصرم فوق لسانى وأمضغه بأسنانى.

ولكنى أستعذب هذا التقلص.. وأتمادى فيه.. وكدت أقول لها إنها مريضة «بالماشوسـيزم» أى مرض تعذيب النفس ما دامت تستعذب أكل الحصرم.. ولكنى خفت أن أربك حياتها أكثر بهذا

التحليل فبدأت أبحث عن تحليل آخر لحبها للحصرم والمانجو الفجة.. وقلت لها :

- ما ينقصك هو أن تصبرى على الحصرم حتى يصبح عنبا وأن تصبرى على المانجو حتى تنضج ولو صبرت على كل ما يقع لك لاستطعت أن تجدى حلا لجميع مشاكلك.

قالت وهى تنصرف :

- صبر إيه يا أستاذ.. ما أنا صابرة أهو ومافيش حاجة بتتحل.. ده بختي يا أستاذ.. بختى المقندل!

لقاء فوق الجبل

في مقهى أبو زياد فوق قمة الجبل .. والنبع الصافى يجرى تحت أقدامنا ويعزف لنا لحن الخلود.. وشجرة الصنوبر تقف بجانبنا وتمد ذراعيها فوق رؤوسنا كالأم الحازمة.

ورأيتها من بعيد.. فتاة لعلها فى الرابعة عشرة.. ممشوقة كغصن الورد.. شقراء فى لون النور وكان حولها أطفال كثيرون.. لا يمكن أن يكونوا جميعا أخوتها.. وكانت تلاعبهم وتضاحكهم ثم أجلستهم حول المائدة ودارت فوق رؤوسهم تطعم هذا وتنهر ذاك وتميل فتقبل تلك.

وأخذت أرقب هذه الأمومة المبكرة كانت تضفى حولها جوا صافيا من الحنان والطيبة كأنها طفلة تلهو بعرائسها.

ثم شغلت عنها بالجبل والنبع وأشجار الصنوبر.. وفجأة أحسست بظل رقيق يلف حولي ورفعت رأسى فوجدتها أمامى.. لم تكن تبتسم.. كانت ترتعش كأنها غاضبة.. وقالت

وكلماتها لا تستقر فوق شفتيها :

– هل أنت الذى تكتب ؟

قلت وأنا أضم الطهر والنقاء إلى عينى :

– نعم ..

قالت منطلقة فى صوت صراخ المكتوم وكأنها تحاسبنى :

– خبرنى.. هل بطلات قصصك بنات حقيقيات.. بنات فى الدنيا ؟

قلت :

– نعم..

قلتها فى بساطة دون تعمد فأنا لا أحاول أن أجيب على السؤال جادا.. أحيانا أقول نعم وأحيانا أقول لا..

ولكنها لم تأخذها فى بساطة.. غضبت وارتفعت الدماء النقية إلى وجنتيها كراية الثورة..

وقالت : لا.. ليس فى الدنيا بنات كبنات قصصك.

قلت :

– صدقينى..

قالت فى حدة :

– أنا لا أريد أن أكون مثلهن.

قلت :

– يا ابنتى .. إنى أعرضهن عليك حتى لا تكونى مثلهن.

قالت وهى تدق الأرض بقدمها الصغير :

– لست ابنتك.. إنى أكبر مما تعتقد.. إنى فى الخامسة عشرة وبعد شهور سأكون فى السادسة عشرة.

قلت مبتسما :

- حذار.. إنك تتكلمين كبطلات قصصي.

وسكتت برهة وهي تنظر إلى بعينين ثابتتين كأنها لا تدري ماذا تقول أو ماذا تصنع بي.

ثم أدارت ظهرها وهي تقول :

بخاطرك يا أستاذ.

وراقبتها من بعيد.

لم تعد تلعب مع الأطفال.. كانت تفكر.



أوراق ضائعة

قالت له :

– لقد فقدت ثقتى فيك.. حاول أن تستعيدها .

قال :



– إنك عندما تفقدين ثقتك فكأنك فقدتنى فحاولى أنت أن تستردينى.

قالت :

– حاول أنت أن تعود.

قال :

– أنا لم أذهب .. أنا لا زلت بجانبك أنت الذى ذهبت عنى.. ولو حاولت أن أستعيدك فلن أستطيع.. ولو أقسمت لك على القرآن فسيداخلك شك فى يمينى.. إن لم تجدى آثار أحمر شفاه فى منديلى فقد تتخيلين أنى مسحت شفتى فى منديلها.. ولو لم أخرج من البيت مساء فقد تتصورين أنى أقابلها صبحا.. ولو سألت عنى فى التليفون ووجدتنى فى مكتبى

سيتهيأ لك أنى معها.. لا.. إن الثقة عندما تصاب بالشك فإنها أصيبت بالسرطان كلما بترت أثرا من آثاره امتد فى أثر آخر.

قالت :

- كأنك تقول إنه لا أمل لنا.

قال :

- الأمل الوحيد فى نفسك.. حاولى أن تقنعى نفسك بأن ما أصبت به ليس سرطانا.. مجرد ورم مؤقت وسينتهى.

قالت :

- سأحاول.

قال :

- سأتركك إلى أن تستعيدى ثقتك فى..

قالت ملهوفة كأنها تتوسل :

- لا.. لا تتركنى.. إنى مريضة كما تقول.. إنى أتألم حتى الورم المؤقت يؤلم.

(هذا مشهد من قصة بدأت أكتبها منذ ثلاث سنوات ولم أتمها حتى اليوم.. عثرت على أوراقها وأنا أحاول أن أشغل نفس بشىء يريحنى من رأسى).

وانتصرت العروس

شاهدت فيلما عن مشكلة نفقات حفلات الزفاف.. المشكلة الأبدية.. مشكلة كل عصر وكل طبقة.. ورغم ذلك فهي مشكلة لم تحل ولا تزال حفلات الزفاف تتسلل إلى جيوب الناس كالنشال الماهر وتسرق كل ما في الجيب وما في الغيب أيضا.

وخلال مشاهد فيلم.. كنت أتذكر صديقا لي تزوج منذ خمسة عشر عاما.. وكان أيامها شابا ثائرا.. لم تكن ثورته لها حدود ولا وعي.. كان لا يقتنع بشيء لمجرد أن الناس تواضعوا عليه.. ولا يؤمن بقانون لمجرد أن الدولة أقرته.. وكان عنيفا عنيدا. وأحب بكل عنفه.. وعناده .. وأقدم على الزواج وهو أشد عنفا وعنادا.. لا مهر ولا شبكة ولا حفلة زفاف ولا شيء أبدا.. وظل حتى آخر أسبوع قبل الزفاف وهو معتقد أنه منتصر بعنفه وعناده وأن أهل الزوجة قد رضخوا له.

وجاءته عروسه تقول في خفة ودعة :

- سأرتدى ثوب العرس.

وصرخ :

- لا .. مستحيل.. لماذا ترتدى العروس ثوبا خاصا.. إنى لم أحبك وأنت ترتدين هذا الثوب.. أحببتك بثوبك هذا وسأتزوجك بنفس الثوب.

قالت فى انكسار :

- إنى سأرتديه مرة واحدة فى حياتى فلا تبخل به علىّ..

وصرخ :

- أنت سترتدينه للناس لا لى.. وأنا الذى أتزوجك لا الناس.. مستحيل.. إنى لست مقتنعا بهذه التقاليد السخيفة.. لماذا يكون ثوب العرس أبيض.. لماذا لا يكون ورديا.. إنى أحب الورود أكثر فلماذا يفرض الناس على اللون الأبيض.. ولماذا يكون فضفاضا طويلا لماذا لا ترتدى العروس بنطلونا مثلا إنى أحبك وأنت ترتدين البنطلون.. ولماذا تضع العروس طرحة على راسها إنى أحب أن أرى ضفيرتك وأريد أن أراها فى كل لحظة وخصوصا فى هذه اللحظة.. لماذا كل هذه التعقيدات.. سنذهب ونتزوج.. مال الناس ومالنا.

وجرت دموع صامتة فوق وجنتى العروس ثم ارتفع تشنجها ثم أسقطت رأسها فوق صدره وأخذت تبكى كأنها تبكى عمرها كله.

قال وهو يربت على كتفها ثم يضمها إلى صدره :

- لا تبكى.. حاولى أن تفهمينى.. و..

وقاطعته وهى تنشج :

إنى أفهمك.. إنك على حق.. ولكن ما أريده أقوى من فهمى

وأقوى من الحق.. لقد عشت حياتى كلها أحلم بهذا الثوب.. كل البنات يحلمن به..

وأنا وحدى سأحرم منه.. كأنى لم أتزوجك.

ولان .. وبدأ يقدر أن عروسه لا يمكن أن تكون فى مثل عنفه وعناده.. إنها أرق من ثورته.. فسمح لها بارتداء الثوب.

ثم لا يدرى ما حدث بعد هذا.. لقد دارت الحوادث بسرعة عجيبة حتى لم يستطع أن يلاحقها أو يوقفها.. ولكنه وجد نفسه فى حفلة زفافه.. ووجد نفسه يرتدى الأسموكنج ويجلس فى الكوشة والراقصة ترقص أمامه.. ووجد نفسه يشترى علب الملبس ويدعو المدعوين ويشترى شبكة ويساهم فى انتقاء الجهاز.. كل شىء حدث وكأنه لم يكن ثائرا على التقاليد ولا عنيفا ولا عنيدا.

إنه لا يزال حتى اليوم وبعد خمسة عشر عاما لا يدرى كيف حدث كل هذا ولا كيف تنازل عن ثورته وعناده.. وأحيانا ينظر إلى وجه حماته ثم ينقل بصره إلى وجه زوجته محاولا أن يتذكر كيف خدعتاه فى ثورته.. ثم يفضل ألا يتذكر.

انتحار الحب

إنه يعمل.. ويعمل كثيراً

لا تسـألوه لماذا يـعـمـل.. ولا تسـألوه لماذا لا يخفف العبء عن نفسه.. فهذه هي طبيعته.. أن يجلس الليل كله وظهره منحن فـوق أوراقه وقلمه بيـده.. وهو لا يشكو من العـمل.. ولكنه أحـيـاناً ينتـفض وهو يشعر بوخز حاد.. ويلتف فيجد سكيناً مغروزاً في ظهره.

ويدير عينيه ليبحث عن صاحب السكين فلا يجد أحداً خلف ظهره.. إن خلف ظهره ظلاماً والنور فوق قلمه.. وفوق الأوراق التي يسطرها.. ويبتسم في مـرارة وينتزع السكين من ظهره.. ويعود يعمل.. ويعمل كثيرا وكأن شيئا لم يحدث.

وتتوالى السكاكين.

وهو لا يزال ينزعها ثم يحني ظهره فوق قلمه ليتلقى سكينا آخر.

إنهم لا يريدونه أن يعمل لأنهم لا يعملون.

لا يريدونه ناجحا لأنهم فاشلون.

لا يريدونه نظيفا لأنهم متسخون.

لا يريدونه حراً لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا أحراراً حتى لو كانوا خارج السجون.

من هم ؟؟

لا يعرف.. ربما لأنه لا يريد أن يعرف.. فهو لا يبحث أبداً عن أفراد ولكنه يبحث دائما عن المجموع.. وقد يكون بين الأفراد السافل والحقير والشرير.. ولكن المجموع دائماً طيب كريم نقي.. وقد نصره المجموع دائما وحارب الأفراد دائما.

والمجموع يعلمه الحب ويمنحه الأمل والسلام والثقة ولذلك يتعلق به.. الأفراد يعلمونه الحقد والكراهية والحرب.. ولذلك لا يريد أن يعرفهم.. إنما يغفر لهم دون سابق معرفة.

وقدمت فيه وشايات كثيرة.

وأثيرت حوله إشاعات دنيئة.

وشايات وإشاعات من قوم ليس بينه وبينهم شئ إلا أنهم قوم متبرعون.

وأحيانا يفيض الخير بالإنسان فيتبرع به.. وأحيانا يفيض الشر بالإنسان فيتبرع به أيضا.

وقلب هذه الوشايات والإشاعات بين يديه ثم ألقى بها فى سلة المهملات كأنه ينفض سيجارته.

وعاد يعمل.. ويعمل كثيرا.

وصاح فيه صاحبه :

– لماذا لا تؤذيهم.. أصحاب هذه الوشايات والإشاعات؟

ورفع رأسه عن أوراقه وقال فى هدوء :

- لا أستطيع.. إن إيذاء الناس موهبة ليست لى.. كل ما أملكه هو الحب.

لو أرادوه فهو لهم؟؟

وصاح صاحبه :

- الحب حتى لهؤلاء؟؟

قال وقد اتسعت ابتسامته :

- لقد انتصرت دائما بالحب.. انتصرت حتى على هؤلاء !



خطاب من سيدة مجهولة لم تذكر من اسمها إلا حرف (ف).

إحسان :



حدثني عن السعادة.. ماهي؟ هل وجدتها؟ أين؟

لقد قال الشاعر الفرنسي : «إن السعادة ابتسامة تمر على شفتيك تاركة دمعة في عينيك..» فهل صحيح أن لا سعادة بلا شقاء؟

ليست السعادة في المال.. فعندي المال ولست سعيدة.

وليست في الأولاد.. فعندي أولاد وبنات ولست سعيدة.

وليست في الحب - كما قد تقول - فإني أحب ولست سعيدة.

وليست في استقرار الحياة فحياتي مستقرة ولست سعيدة.

ولو سألتني عن أسعد لحظات عمري لقلت لك إنها اللحظات التي خالفت فيها ضميري.

فهل السعادة فى الاستغناء عن الضمير ؟؟

«إحسان».. لا تلقى علىّ درسا فى الفضيلة فانت لا تصلح لإلقاء الدروس إنما قل لى الحقيقة.. حقيقة النفس البشرية.. فقد أستريح إذا سمعت منك أننا جميعا ولدنا للخطيئة.

سيدتى..

إن السعادة معنى مجرد كالأوهام.. ليست شيئا محسوسا تستطيعين أن تشتريه من شيكوريل أو تستورديه من كريستان ديور.. والإنسان لن يصل إلى المعانى المجردة إلا إذا كان هو نفسه مجردا طليقا حرا كالهواء.. ولكن الإنسان ليس معنى إنه شيء.. وهو ليس طليقا حرا بل هو روح سجينة فى جسد وجسد مقيد إلى روح.

فإذا حاولت الروح أن تنطلق صدتها الضلوع.

وإذا حاول الجسد أن ينطلق جذبه الضمير.. أى الروح.

ولهذا فالسعادة ليست فى الفضيلة ولا فى الخطيئة.. وقد تسعد الروح بالفضيلة ولكن الجسد يتعذب بها وقد يسعد الجسد فى الخطيئة وتتعذب بها الروح.

إن فى كل لمسة من لمسات السعادة نفسا من الشقاء.. وفى كل لمسة من لمسات الشقاء نفسا من السعادة.

هكذا كتب علينا.. لأن كلا منا مجرد إنسان.. ليس ملاكا حتى يسعد مع الملائكة ولا شيطانا ليسعد مع الشياطين.. إنه مجرد إنسان.

والحياة نفسها - حياة الكون كله - لا تسير نحو سعادة الإنسان.. إنما هى تسير لمجرد الاستمرار.. أن نتعاقب جيلا بعد

جيل وأن تدور الأرض حول الشمس وأن تدور الكواكب في أفلاكها.. بلا هدف إلا لمجرد الاستمرار.. ونحن اليوم لسنا أقل سعادة ولا أكثر شقاء من أجدادنا منذ بدء الخليقة.. ولن يستطيع العلماء والفلاسفة أن يغيروا الحياة لنعيش سعداء سعادة كاملة.

ونصيحتي لك ياسيدتي أن تستمري مع الحياة دون مقاومة ودون تفكير.. وأن تسعدي إذا سعدت وأن تشقى إذا شقيت.. دون أن تسألي ما هي السعادة وما هو الشقاء.

ولا تحاولي أن تستغني عن ضميرك فالضمير - كما قلت - هو الروح.. ولن تسطيعي أن تستغني عن روحك.

ولا تحاولي أن تستغني عن خلجات جسدك.. فلن تسطيعي أن تعيشي بلا جسد.. هكذا أفعل أنا.

وكل ما أريده هو أن أحاول دائما أن أحب.. أحب حتى أعدائي.. فإن شقاء الحب أخف بكثير من شقاء الحقد والكراهية.

ولعلي بهذا لم ألق عليك درسا في الفضيلة فأنا كما تقولين لا أصلح لإلقاء الدروس.. إنما أصلح لقول الحقيقة.. والحقيقة يصعب دائما الوصول إليها.

لا يكفى أن تكون صحفيا ناجحا أو كاتبا ناجحا لتكون صاحب جريدة ناجحة.

ولا يكفى أيضا أن تكون صاحب رأسمال ضخم لتكون صاحب جريدة ضخمة.

وقد كان العقاد - مثلا - كاتبا صحفيا ناجحا يثير ضجة كل صباح عندما كان يحرر فى جريدة روز اليوسف اليومية.. ولكنه فشل عندما حاول إصدار جريدة لنفسه أسماها الضياء على ما أذكر.

ومحمود عزمى مندوب مصر اليوم فى هيئة الأمم المتحدة كان دائما صحفيا عبقريا ورغم ذلك فشل فى اصدار جريدة ناجحة.

وفكرى أباظة.. كانت جريدة الأهرام تباع باسمه عندما كتب بها ثم أصبح رئيسا لتحرير المصور وعمادها الأول فى التوزيع.. وقد مضى عليه إلى اليوم ثلاثون عاما وهو رئيس لتحرير المصور ورغم ذلك لم يحاول إصدار جريدة لنفسه

ورفض جميع العروض المغرية التى عرضت عليه لإصدار جريدة.. لأنه يعترف بأنه لا يستطيع أن يصدر جريدة.. ومن ناحية أخرى حاول السيد أحمد عبود أن يدخل برأسمال ضخم إلى ميدان الصحافة وأصدر جريدة أسماها الكشاف.. فلم تنجح وضاع رأس المال الضخم وكانت تجربة لم يحاول عبود أن يعاودها مرة ثانية.

وحاول كثيرون من أصحاب رؤوس الأموال - وبلاش أسماء - أن يصدروا صحفا كعمل تجارى ناجح يضفى على صاحبه نفوذا كبيرا.. ولكن أغلبهم - أو كلهم - فشلوا.. وبعضهم عاد مشقوق الجيب مجروح الفؤاد.

إنما إصدار جريدة ناجحة يحتاج إلى عبقرية خاصة .. ليست عبقرية الفن وحده.. ولا عبقرية رأسمال المال وحده.

ما هى - أولا - الجريدة الناجحة ؟

هل هى الجريدة الأكثر توزيعا ؟ إن التوزيع يقوم أحيانا على أسباب لا يمكن أن تكون عنصرا من عناصر نجاح الصحيفة.. كالافراط فى التفاهة وقد جاء وقت كانت أكثر المجلات المصرية انتشارا هى أشدها تطرفا فى التفاهة.. ولن أذكر أسماء.

وقد يقوم انتشار الجريدة على التضليل والكذب والتهويش أو على الإثارة الجنسية الوقحة وكلها أسباب لا يمكن أن تتخذ عناصر لنجاح جريدة محترمة.

وقد يكون انتشار الجريدة لأسباب خارجة عن العمل الصحفى نفسه كإصدار يانصيب مغر أو التأمين على حياة القراء ضد حوادث الطريق.. كما فعلت مرة جريدة الديلى ميل

الانجليزية فارتفع توزيعها إلى مليونى نسخة وسؤال آخر.. قبل أن نعود إلى عناصر نجاح الجريدة.

هل الجريدة الأكثر توزيعا هى الجريدة الأكثر نفوذا بين طبقات الشعب؟.. أو هى الجريدة التى تستطيع أن تثير الشعب أو تحتفظ بهدوئه أو تقيم حكومة وتسقط أخرى محتفظة دائما بثقة القارىء وإيمانه واطمئنانه إليها ؟

لقد كانت جريدة نيوز أوف ذى ورلد تبيع ثلاثة ملايين نسخة والديلى ميل تبيع مليونين والديلى اكسبريس تبيع حوالى الثلاثة ملايين أيضا ولم تكن التيمز تبيع أكثر من اربعمائه الف نسخة.. ورغم ذلك ظل نفوذ التيمز أقوى من نفوذ الجرائد الثلاث مجتمعة مدة طويلة .. وأعتقد أنها لا تزال أقوى الصحف الانجليزية نفوذا.

وعلى العكس.. فإن الجرائد الأكثر توزيعا فى انجلترا هى أبعد الصحف عن قلوب القراء وأصحابها من أوائل الشخصيات التى يكرهها الشعب وينفر منها.. ولكن القارىء ـ رغم ذلك ـ يشترى هذه الصحف لأنه يجد فيها ما يوازى قرشه أو يزيد.. تماما كما يقبل الجمهور على الأفلام الأمريكية ويهمل الأفلام المصرية لأن الأولى تقدم له ما يستحق أجر الدخول.. بينما الثانية تعتمد فقط على وطنيته.

ودعنا ـ فى هذا المجال ـ من الصحف المصرية.. الآن.

ما هى عناصر الجريدة المثالية الناجحة.. التى تضمن للقارىء الأمانة والصدق وحسن التوجيه وتضمن لصاحبها عدم خرابه وضياع رأسماله ؟

قرأت كتابا لويكهام ستيد الصحفى الانجليزى المشهور

الذى تولى رئاسة تحرير التيمز فترة من الوقت.. يعدد فيه عناصر الجريدة اليومية المثالية الناجحة وهى.. بعد التلخيص..

النجاح التجارى للجريدة ليس معناه نجاح الجريدة فالجريدة المثلي هى التى لا يؤثر عليها الجشع التجارى والرغبة فى الربح.

يجب أن يكون ظهور الجريدة الجديدة يصحبه عدة مفاجآت بحيث ترتبك الجرايد الأخرى الموجودة فعلا ولا تفيق إلا بعد أن تكون الجريدة الجديدة قد احتلت مكانتها لدى القراء.

نجاح الجريدة يقوم على قدرة محررها على قراءة أفكار الأجيال القادمة الناشئة ثم قيادتها إلى الطريق الذى لو عرفته لانقادت إليه.. والأجيال الناشئة ينقصها دائما فكرة تؤمن بها وينقصها الهدف الذى تعيش له وتموت فى سبيله.. إنهم - مثلا - يلعبون الرياضة ليكونوا صالحين ولكنك لو سألتهم صالحين لماذا ؟ لما عرفوا الجواب.

وعلى الجريدة المثالية أن تجد الجواب.. وأن تجد الفكرة والهدف.

الجريدة المثالية تبحث عن الحقيقة وتعلنها صراحة دون خشية ودون تأثير وتسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية ولا تلف ولا تدور وتعطى الشرف لمن يستحقه حتى ولو كان من أعدائها وإن أخطأت كان خطؤها درسا لها.

لا تقبل الجريدة إلا الإعلانات الشريفة حتى يكون فى نشرها ضمان للمعلن وللقارىء فإذا داخلها الشك فى إعلان نشرته فى صيغة التشكيك.

لا تلجأ الجريدة إلى الوسائل التجارية كاليانصيب ونشر

شهادات التوزيع والتأمين على القارىء والهدايا.. إلخ.

الجريدة لا تجامل أحدا ولا تشهر بأحد.

نشر الأخبار هو واجب الجريدة الأول.

لا تتعب القارىء فى إرساله من صفحة إلى صفحة وراء بقايا الأخبار والمواضيع كما تفعل بعض الصحف حرصا منها على أن تضع كل العناوين فى الصفحة الأولى.

لا تغش القارىء بالعناوين المثيرة أو بإعادة نشر أخبار قديمة فى صيغة جديدة.

تنشر الجريدة كل الأخبار سواء كانت ضد سياستها أو مع سياستها فالحقيقة أولا.

لا تؤيد الجريدة حكومة أو حزبا ولا شخصا إلا إذا كان ذلك فى سبيل الشعب والشعب هو السيد والخادم الأمين للشعب هو الذى يقول الصدق دائما لسيده.

ويستمر ويكهام ستيد فى وصاياه التى تقوم عليها الجريدة المثالية الناجحة.. ويؤكد أن مثل هذه الجريدة تضمن توزيعا كافيا لأن تستمر وإعلانات كافية لموازنة الميزانية.

ورغم ذلك فويكهام ستيد لم يصدر جريدة لنفسه وإذا اقتنعت بكلام الصحفى العالمى المشهور فحاول أن تختار جريدتك الصباحية : الأهرام أو الأخبار أو الجمهورية.

ملحوظة : كتبت أسماء الصحف الثلاث حتى لا أغضب أحدا بترتيب أقدميتها.

كيف تختار المبدأ السياسى
الذى تؤمن به ؟

كيف وجدت كل هذه المبادىء السياسية التى يتصارع حولها العالم ؟ وكيف ظهرت ألفاظ الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية والديكتاتورية.

كل هذا وجد لأن إنسانا سأل نفسه فى أوقات فراغه : ما هى علاقة الفرد بالدولة.

وأفلاطون عندما وضع كتابه «الجمهورية» لم يفعل أكثر من أن سأل نفسه هذا السؤال.

وكارل ماركس وانجلز عندما وضعا نداءهما المشهور الذى يبدأ بالهتاف المعروف : « يا صعاليك العالم اتحدوا» كانا يسألان نفس السؤال.

وأنت تستطيع أن تلغى من ذاكرتك كل هذه المبادىء وكل هذه الألفاظ ثم تسأل نفسك :

«ما هى علاقتك بالدولة؟» وعندما تجد الجواب ستجد المبدأ

الذى تؤمن به.. وقد يكون أحد المبادىء المعروفة وقد تصل إلى مبدأ جديد لم يسمع به العالم من قبل.

اسأل نفسك مثلا : ما هو واجب الدولة عندما تريد أن تتزوج؟

هل من واجبها أن تعد دفاتر للزواج تسجل فيها زواجك ؟ أم يكفى أن تقف الدولة من بعيد تراقبك وأنت تعقد زواجك بمجرد الإيجاب والقبول أمام شاهدين كما تنص الشريعة الإسلامية ودون عقد ؟

وهل من حق الدولة أن تتقاضى ضريبة على زواجك كرسم تسجيل؟

وهل من واجبها أن تعد فتيات الأمة كلها وتثقفهن ثقافة خاصة لتصلح كل منهن للزواج بك ؟ أم أن الدولة غير مسئولة عن اعداد الفتيات للزواج وأنت بعد ذلك حر فى تحمل مسئولية اختيارك؟

ثم هل من حقك على الدولة أن تعد لك البيت الذى ستعيش فيه مع عروسك وتؤثثه لك ؟ وهل تكون جميع البيوت التى تعدها الدولة متساوية ؟ أم أن الدولة غير مسئولة عنك سواء عشتما فى قصر أم عشتما فى خيمة؟

وبعد أن تنجب أطفالا هل الدولة مسئولة عن إعالتهم وتربيتهم وإعدادهم للحياة؟ أم أنت وحدك المسئول عن أولادك؟ ومن حقك ـ مثلا ـ أن تنشئهم فى المدارس الفرنسية أو المدارس الجريكية إن لم تعجبك المدارس المصرية ومن حقك أيضا أن تتركهم بلا تعليم إطلاقا ما دمت تريد ذلك أو ما دمت

لا تستطيع أن تدفع لهم مصاريف المدارس ؟ أم أن مسئولية تعليم الأولاد توزع بين الدولة وبينك فالدولة مسئولة عن تعليمهم إلى حد معين وعليك أنت الباقي.

ثم..

هل من حق الدولة أن تمنعك من الزواج إذا كنت مريضا مثلا بمرض وراثي أو إن كنت ضعيفا أو إن كنت مجرما.

إذا أردت الطلاق.. هل يكفي أن تترك زوجتك وتمشي؟ أم يجب أن تبلغ الدولة بأنك طلقت؟ أم واجب الدولة أن تمنعك من الطلاق إلا إذا وقفت أمام القاضي وتقدم له من الأسباب ما يقنع الدولة بالطلاق؟

هذه الأسئلة البسيطة التي تدور حول زواجك ينتهي جوابها إلى أحد المبادىء التي سمعت عنها ودرستها.. قد ينتهي الجواب إلى الرأسمالية وقد ينتهي إلى الاشتراكية أو إلى الشيوعية وينتهي بالتالي إلى اختيار شكل الدولة التي تؤمن بها سواء كانت دولة ديمقراطية أو ديكتاتورية أو دولة.. نص نص.

وعندما تسأل نفسك ما هي علاقتك بالدولة ؟ لا تدخل في تفكيرك الألفاظ الرنانة العامة.. كلفظ الحرية.. أو العدالة.. أو المساواة.. إلخ..

إنها مجرد ألفاظ.

ألفاظ تدل على حقيقة واحدة مجسمة تتفق عليها كل الآراء.. فالحرية ليست بناء مثلا لا يختلف إثنان في أنه بناء وليست سيارة أو يختلف اثنان في أنها سيارة.. إنما هي معنى وهي

لا تحس به ولا تلمســه إلا فى مدلولاته وتطبيقاتــه.. كالكهرباء مثــلا فأنت لا ترى الكهرباء ولم يرها أحــد من قبلك ورغم ذلك فالكهرباء مــوجودة فى مدلولاتها وتطبيــقاتها.. فى النور الذى يضـاء وفى الراديو وفى التليفزيون.. الخ.

والحرية لها ألف مدلول وألف تطبـيق وكلها رغم الاختلاف الكبير بينها يمكن أن يتمتع كل منها بلقب : حرية.

مثلا..

أنت حر فى أن تذهــب إلى الطبيب ولا تعتــرض الدولة على ذهابك إليه بل إنهــا ترصف الطريق إلى عيادته وتعين عــساكر بوليس حتــى لا يعتدى أحــد على حقك فى عــلاج نفسك.. هذه حرية لا شك.

ولكن رغم أن الــدولة تضــمن لــك حــريتك فــى الذهاب إلى الطبيب فإنك قد لا تكون حرا فى الذهاب إليه لأنك لا تملك قيمة الفز يتة الــتى تدفعها له.. إذن فالحــرية فى هذه الحالة هى أن تجـعل الدولة أجر الطبـيب زهيدا بحيث لا يزيد على خــمســة قروش حــتى تكون حرا فى الذهاب إليــه.. وهذا شكل آخر من أشكال الحرية.

ولكنك رغم ذلــك أيضــا قــد لا تكون حـــرا فى الذهاب إلى الطبيب لأنك لا تملك الخمسة قــروش التى تدفعها له إذن فيجب أن تتولى الدولة علاجك بالمجان إذا أرادت أن تضمن لك حريتك فى الذهاب إلى الطبيب وهذا مدلول ثالث للفظ الحرية.

ولكن مــرضك قد يكــون خطيرا حــتى يتــعارض مع حــرية الآخرين فى أن يعيــشوا أصحــاء.. قد تنتقل إليــهم العدوى وقد

تتـزوج فتنجـب أطفالا مـرضى يلوثون الشـعب ويضـعفـون الجنس الذى تنتـمى إليـه.. إذن فـالحرية ـ حـرية الآخـرين ـ لا تسمح لك بالذهاب إلـى الطبيب ولا تسمح لك بالعـلاج حتى يتم شفـاؤك ما دمت قـد لا تشفى فـيجب أن تقتـل أو تعقم أو تعزل عن الحـياة.. وهذه نظرية رابعة لتـفسيـر الحرية.. نظرية كان يؤمن بها هتلر وأمثاله.

وهذه التطبـيقات المخـتلفة للفـظ الحرية تنتهـى إلى فوارق كبيرة فى المبادىء السياسية ونظم الدولة.. فالحرية الأولى هى الحرية الرأسـماليـة والحرية الثـانية هى الحرية الاشـتراكـية والحـرية الـثـالثـة ـ إذا طبـقت على كل الناس ـ هـى حـرية الشيوعية والحرية الرابعة هى حرية الحاكم المجنون.

فلا يكفى أن تنادى بالحرية منسـاقا وراء الجموع بل يجب أن تختار لنفسك تطبـيقا من تطبيقات الحرية، تجـد فيه إيمانك وتعرف على ضوئه طريقك وطريق أبنائك وأحفادك.

الـــزوجـة العــاقــلة

كتبت مرة أن مهـمة وزير المالية لا تختلف فى شىء عن مـهمـة ربه البـيت وأن جـميع الدفـاتر والسـجلات والأضـابير التى تحـتفظ بهـا وزارة المالية لا تزيد فى شىء عن الـدفتر الصغـير الذى تحتـفظ به ربة البيت المنظمـة والذى يسمى دفتـر المصروف.. وأن جميع التعابير الاقـتصادية الجافة التى تتردد على ألسنة الاقتصـاديين فى العالم كله لا تعنى شيئـا أكثر مما يعنى لفظ إيراد ولفظ متصرف.

والواقع أن الحكومة كلها بكل وزرائهـا وبكل أداتها لا تقوم بأكثر مما تقوم به ربة البـيت.. فوزير الأشغال ووزير البلديات ـ مثلا ـ لا يقومان بأكثر من مهمة الزوجة فى تنظيف وتجميل البيت ووزير المـعارف لا يقوم بأكـثر مما تقـوم به الزوجة من تعليم أولادها المشى ونطق الكلمات ووزير التـجاره يقوم بدور الزوجة عندما تشترى لوازم البـيت من السوق ثم توزعها على أفراد العائلة.. الخ.

والفرق الوحيد هو الفرق بين البيت الصغير الذى يضم أفراد عائلتك والبيت الكبير الذى يضم أفراد الأمة كلها.. وهو الفرق بين إيرادك ومصروفك الخاص وإيراد ومصروف الأمة كلها.

والفرق بين مهام ربة البيت ومهام قائد الجناح عبداللطيف البغدادى هو الفرق بين الكوريدور الذى يصل بين الصالة وغرفة النوم داخل البيت وبين شارع فؤاد ـ ٢٦ يوليو ـ حاليا الذى يصل بين الزمالك والعتبة الخضراء داخل القاهرة.

وأنت عندما تفكر فى الزواج لن تبحث عن فتاة كل شروطها أن تكون غنية جدا بل إنك ـ ما دمت رجلا معتزا بشخصيتك فاهما لمصالحك ـ سترفض الزواج من هذه الغنية جدا حتى لو كنت تحبها لأنك لو تزوجتها فلن تفهم عقليتك ولن تفهم حاجياتك المعيشية ولن تفهم عاداتك ولن تستطيع بالتالى أن تدبر إيرادك بحيث تصرف كل قرش من قروشك فى محله وستضطر إذا لم تطلقها أن تعيش على ما يحسن به والدها عليك.. والإحسان تأباه النفس الأبية وأنت ـ كما أرجو ـ أبى النفس.

إنما ستختار زوجتك من درجة قريبة من درجتك ومن بيئة قريبة من بيئتك بحيث تشترك معك فى عقليتك وتفهم كيف تدبر شئونك وكيف تحقق السعادة لك ولأولادك فى حدود إيرادك.

وكذلك عندما تختار الحكومة التى تثق بها فأنت لا تختار حكومة لأن وزراءها أغنياء لا يفهمون إلا مصالح الأغنياء ولا يحسون إلا بإحساس الأغنياء ولا يفكرون إلا بعقلية الأغنياء.. بل إنك قد تثور عل مثل هذه الحكومات كما ثرت على

حكومـات العهـد الماضى لأنهـا كانت حكـومات مـبذرة تخـدم الأغنيـاء وعلى رأسـهم الملك ولا تحس بما أنت فـيـه من فقـر وجوع.

وعندمـا تتسلم زوجـتك منك مـصروف البـيت فى أول كل شهر سيـكون أول ما تفكر فيه وأول ما تسأل نفـسها عنه هو ماذا أشترى أولا ؟ وعلى قدر اجـابتها على هذا السؤال ـ وهو سؤال ليس هينا ـ تسـتطيع أن تحكم على درجة ذكـاء زوجتك ودرجة غيرتها على مصـالحك.

فإذا كان البيت فى حاجة إلى خزين.. خزين أرز ولكنها بدلا من أن تشتـرى الأرز اشترت بالنقود زجاجـة عطر أو إذا كان ابنك فى حـاجة إلى حـذاء ولكنها بدلا من أن تشـترى الحـذاء اشترت لنفـسها زوجين من الجوارب النايلـون.. فإنك تستطيع فى هذه الحالة أن تطلقها غير نادم.

وكذلك الحكومـة.. فإذا كان الأفراد فى حاجـة إلى الغذاء أو فى حـاجـة إلى مـدارس.. ولكن الحكومـة بدلا من أن تصـرف ميزانيتها على الغذا والأدوية والمدارس صـرفتها على استيراد عقـود الماس وأقراط اللؤلؤ وأساور الـذهب.. فهى حكومة غـير مدبرة لا يمكن أن تتقدم بالأمـة أو تسعدها.. ولذلك فإن الثورة أول ما فكرت فى رفع مـستوى الأفراد.. رفـعت الضرائب على الكماليات بفئات باهظة لأن البيت الكبير فى غنى عنها فإذا وجد من بين الأفراد من يصمم على اقتنائها ـ اقتناء هذه الكماليات ـ فيجب أن يدفع أضـعاف ثمنها الأصلى للدولة حـتى تشترى به بعض الضروريات الأولية التى يحتاج إليها بقية الأفراد.

ولكن زوجتك قد تعجز عن تحـقيق المساواة بين أفراد العائلة

نظرا لضآلة مرتبك وهى فى الوقت نفسه لا تستطيع أن ترسل أحد أولادها إلى المدرسة ولا ترسل آخر أو تشترى ثيابا لأحدهم ولا تشترى لآخر وفى هذه الحالة ستطلب منك أن تستغنى حتى عن الكماليات كأن تطلب منك الإقلاع عن التدخين أو ترجوك أن تذهب إلى مقر وظيفتك سيرا على قدميك أو عدم التردد على القهوة لتوفر القرش الذى تدفعه هناك.. وقد تزداد الحالة سوءا فتبدأ الزوجة فى الاستغناء عن بعض الضروريات وبدل أن تسأل نفسها ماذا تشترى أولا تجدها تسأل نفسها عما أستغنى أولا وقد تضطر أخيرا إلى بيع قطع الأثاث الجميلة التى تجذب بها الأصدقاء، كما باعت الثورة مخلفات فاروق التى كان المفروض أن تبقى لتجذب السياح ثم لا تجد الزوجة وسيلة بعد ذلك إلا أن تفكر معك كيف تزيد إيراد البيت بأن تدفعك إلى البحث عن عمل إضافى أو تبحث هى عن عمل لنفسها لتضيف إيرادها إلى إيرادك وتتمكن بذلك من تحقيق المساواة بين أفراد العائلة.

وكذلك الحكومة أيضا.. فهى تتبع فى خطواتها نحو الاشتراكية أى نحو المساواة بين أفراد البيت الكبير نفس ما تتبعه الزوجة العاقلة.. ضغط المصروفات وزيادة الإيرادات.

وزيادة الإيراد وسيلته تسمى التصنيع.

ويوم تصل الحكومة إلى حد أن يصبح المصروف والإيراد نتيجة تحقيق المساواة الكاملة بين أفراد الشعب كله ستكون قد حققت الاشتراكية.

وبعدها.. قد تستطيع أن تشترى عقود الماس وأقراط اللؤلؤ وأساور الذهب.. ويصبح لكل منا سيارة وتليفزيون وفريجيدير.

قل.. يارب.

الفن والمال

الكائن الحى الوحيد الذى لا أناقشه هو السيدة فاطمة اليوسف ولا أناقشها لأنى أخافها وأخافها لأنى أحبها.. ولكن السيدة فاطمة اليوسف لا تقدر فضيلة الخوف ولا تؤمن بأن الخوف نوع من الحب حتى لو كان خوفا عليها وعلى أعصابها وعلى حسن ظنها بى.

وفى الأسبوع الماضى أدليت بحديث لمندوب الإذاعة قلت فيه إن الفن فى مصر ينقصه المال.. المال لنرتقى بالمسرح.. والمال لنرتقى بالسينما.. والمال لنرتقى بالفنان.

واستمعت السيدة فاطمة اليوسف إلى هذا الحديث ثم ضغطت على الجرس الذى يصل مكتبها بمكتبى وقالت فى هدوء وأنا واقف بين يديها ابن مطيع وتلميذ صغير.

– الفن فى مصر ينقصه الفنان.

قلت فى استسلام :

– حاضر.

وبهذا انتهت المناقشة.

ولكن كلمة حاضر ظلت واقفة فى حلقى كالشوكة ووجدت نفسى مضطرا لأن أكمل المناقشة بينى وبين نفسى.

هلى صحيح أن الفن فى مصر لا يحتاج إلا الفنان ؟

هل ظهر اليوم ممثل مسرحى فنان ـ كل فن ـ يستطيع أن ينهض بالمسرح ؟

أين يجد المجال الذى يظهر فيه ؟ وكيف يبنى مسرحا لنفسه لائقا للتمثيل ؟ وكيف يكون فرقة محترمة تحيط به ؟ وكيف يستأجر مواهب الفنانين الذين يبنون له الديكور ويعدون له الملابس. الخ ؟

وإذا ظهر مخرج سينمائى عظيم فى فنه أين يجد الاستوديو الكامل الذى يعمل فيه؟ وأين يجد الوسائل التى يمكنه بها أن يلقن الممثلين والممثلات كيف يمثلون ؟ وأين يجد الكاتب والسيناريست الذى يرضى بأن يتفرغ له دون أن يدفع له ما يكفى حياته؟!

وإذا وجد أديب فنان ـ كله أدب وكله فن ـ هل يستطيع أن يتفرغ لأدبه وفنه ويعيش عليهما؟.. إن طه حسين وتوفيق الحكيم لم يستطيعا أن يعيشا على أدبهما أو يتفرغا له بل وجد كل منهما لنفسه وظيفة تعينه على الحياة ويقتطع فى سبيلها جزءا من وقته ومن فكره ومن أعصابه اللذين كان يجب أن يهبهما كلهما للفن.

إنه الفقر الذى يطمس الفن فى مصر.. وليس المعنى من ذلك أن الفنانين فقراء.. فأم كلثوم تخطو نحو المليون الأول بسرعة.. وعبدالوهاب ارتفع رصيده حتى لم يعد يعلم ماذا يصنع به.. وفريد الأطرش أصبح يملك من العمارات بعدد ألحانه أو على الأصح أفلامه.. وأنور وجدى بينه وبين عبود فركة كعب.

ولكن ثراء الفنانين لا يعنى ثراء الفن.. وإذا أقام فريد

الأطرش عمارة أو اشترت أم كلثوم « حتة أرض» فليس معنى هذا أن الفن قد ارتقى .. وقد يكون هذا صحيحا لو أن أم كلثوم فكرت فى بناء مسرح حديث فخم يحمل اسمها بدل المرمطة بين سينما ريفولى ومسرح الأزبكية والسرادقات التى تقام لحفلاتها.

وقد يكون هذا صحيحا لو أن عبدالوهاب فكر فى إنشاء استوديو كامل المعدات الحديثة وأتى له بالخبراء أو لو أنه فكر فى إخراج فيلم ينفق عليه بحساب آخر غير حساب «القطارة».. أو لو فكر فريد الأطرش فى إقامة معهد موسيقى فخم يتولاه أساتذة عالميون أو لو جمع أنور وجدى فريقا من كبار الأدباء وتحمل نفقات تفرغهم للنهوض بالقصة السينمائية.. أو .. إلخ.

والفنان كما قلت كالجوهر لا يمكن اكتشافه إلا إذا حفرنا الأرض من حوله ورفعنا منها آلاف الأطنان من الأتربة والطين ثم شذبناه وصقلناه ثم وجدنا الحسناء التى تتحلى به.. وعمليات الحفر ورفع الأتربة والتشذيب والصقل وإيجاد الحسناء.. كل ذلك يحتاج إلى مال.

ولكن الفن الآن فى مصر ليس فيه جواهر.. فيه أتربة وطين.. ولا يدخله إلا كل فتى صايع وكل فتاة مغامرة.. الناجحون فيه نجحوا بالحداقة والفاشلون فشلوا لسوء الحظ لا لأنهم ليسوا فنانين.

ليس فيه جواهر لأن الجواهر لها ثمن.. والثمن غير موجود ولأن الحسناء التى تعشق الجواهر لم تظهر بعد.. كلهن حسناوات يعشقن الصفيح والزجاج.

وحالة الفن فى مصر اليوم كحالة الصحافة منذ ثلاثين عاما قبل أن تكون فيها رؤوس الأموال لترتقى بها وتكشف عن جواهرها.

كانت الصحافة تقوم على بعض الأقلام المعروفة.. العقاد

وطه حسين والمازني.. كما يقوم الفن الآن على بعض الأسماء اللامعة.. عبدالوهاب وأم كلثوم وأنور وجدي.. إلخ.

وغير هذا لم يكن في الصحافة شيء.. لا مطابع ولا آلات ولا فرق كاملة من الفنانين ولا علماء.. لم يكن سوى فريق واحد من الشحاذين.. جعلوا الصحافة مهنة لا تشرف صاحبها ولا تصون احترامه ولا يقربها رجل متعلم محترم.

هكذا الفن اليوم.

بقي شيء.

كيف نحصل للفن على المال؟

هل تقدمه الحكومة؟.. لا.. ألف مرة لا.. إنما تقدمه شركات إما أن تتألف من كبار الفنانين الذين يملكون ثروات أو تتألف من رؤوس أموال جديدة تدخل المجال الفني بقصد الاستثمار.

ويوم يحدث هذا .. سيقضي على الفقر الفني المتمثل في هذا الانتاج الفردي الضعيف الهزيل الذي لا يكلف صاحبه سوى ثلاثة آلاف جنيه يدفع الموزع عليها سبعة آلاف ويبيع النسخ مقدما بألف أخرى.. وهذا هو رأس المال كله.

يوم يحدث هذا .. لن تستطيع فاتن ولا زينات صدقي ولا مديحة يسرى ولا ماجدة ولا محسن سرحان ولا عماد حمدي.. ولا أحد من كل هؤلاء أن يقدم على الانتاج الفني وحده معتمدا على التصلقة أو الفلسفة أو الحداقة والابتسامة الحلوة.

وقولوا عني بعد ذلك إني رأسمالي رجعي.

وأنا أفضل أن أكون رأسماليا من أن أرى الفن يذبح أمام عيني.

«ملحوظة» قرأت السيدة فاطمة اليوسف ما كتبته.. وقالت إن هذا ما كانت تقصده لأنه لو كان أحد من أصحاب الأسماء اللامعة فنانا حقا لوهب الفن كل ربحه.

فن.. ولا فن



طلب منى يوسف السباعى أن أعد بحثا فى الأدب لألقيه فى مؤتمر الأدباء المنعقد فى دمشق ورفضت لأن الأدب عندى ليس بحثا.. ولكنه إنتاج.. إنه قصة أو قصيدة وليس بحثا.. إنه فن وليس نقاشا.

وأنا لا أحاول أن أضع إنتاجى الأدبى ضمن إحدى المدارس الأدبية.. لست هادفا ولا غير هادف.. ولست رومانسيا ولا واقعيا ولا صريحا ولا سيرياليا ولا برجوازيا ولا بروليتاريا.

وقد يضعنى النقاد فى هذه أو تلك ولكنى عندما أكتب لا أضع نفسى فى إحداها بل أحرر نفسى من كل هذه القيود وأهدم كل هذه الحوائط وأنفض عن رأسى كل ما قرأته من أبحاث.. ثم أكتب.

وليس عندى إلا أساس واحد للأدب أؤمن به أساسا لم يتغير ولم يبتذل منذ كتبت أول قصة فى تاريخ الإنسان.. ولم تستطع كل حذلقة أصحاب الأبحاث أن تغير منه شيئا..

هذا الأساس هو الإنسانية نفسها.. أن يكون أدبا إنسانيا صادقا.. أن يعرض الإنسان على حقيقته بكل ما فيه من خير وشر فالأديب ليس قاضيا ليحكم على القاتل بالإعدام بل هو يعرض نفسية القاتل فى أمانة ولو انتهى عرضه بتبرئته مخالفا القاضى والقانون والدين أيضا.

والأديب ليس سياسيا.. ليس مطلوبا منه أن يكون شيوعيا أو اشتراكيا أو رأسماليا كل ما هو مطلوب منه أن يكون إنسانا صادق الإحساس.. وتحيز الأديب لأحد هذه المبادىء يلوث أدبه وفنه ويجعله يرى الإنسان بعين واحدة ونصف قلب ونصف إحساس.

هذا رأيي.. وهو رأى يغضب الكثيرين من الذين يحاولون أن يلبسوا الأدب العربى أزياء مستوردة من روسيا أو من أمريكا.. لمجرد أنها أزياء شغل إبرة والأديب الذى ينقاد لهذه المحاولة يصبح كالفتاة الغبية التى تنتقى لنفسها ثوبا لمجرد أنها رأت صورته فى إحدى مجلات الأزياء ودون أن تستعمل ذوقها الخاص وتقدر ذوق الناس الذين ستبدو أمامهم ودون أن تقارن بين جسدها وجسد المانيكان التى رأت صورتها فى المجلة.. فقد تكون سمينة لا تصلح لارتداء البنطلون وقد تكون معضمة لا تصلح لثوب عارى الأكتاف.

وإذا كان لابد من تقسيم الأدب إلى مدارس فإنى لا أعترف إلا بتقسيمه حسب موطنه.. أدب روسى وأدب ألمانى وأدب أمريكى وأدب فرنسى وأدب عربى.. والتقسيم هنا ينصب على المجتمع الذى يصوره الأدب، وعلى اختلاف العقليات واختلاف الذوق الفنى بين كل وطن وآخر.

والجهود التى تبذل فى ترقية الأدب العربى يجب أن تنحصر فى جعله أدبا عربيا ليس فيه الروسى أو الفرنسى أو الأمريكى.. أدبا عربيا صرفا ينبع من صميم المجتمع العربى.. ويعطى صورة صادقة للإنسان العربى فى ظروفه.. وفى مشاكله وفى عقليته وفى نفسيته.. و.. صورة صادقة لا تصور بطولات كاذبة ولا تخلق إنسانا خياليا مثاليا.. بل هو الفرد العربى كما هو.

ويوم يصل الأدب العربى إلى هذه الدرجة من الصدق فى التعبير عن المجتمع العربى سيصبح عالميا.. والأدب العالمى ليس هو الأدب الذى يصور أجواء العالم المختلفة بل هو الأدب الذى يصور مجتمعا واحدا تصويرا واضحا يعطى للعالم صورة صادقة عن هذا المجتمع.. وجميع الكتاب العالميين عرفهم العالم عندما كتبوا عن وطنهم والمجتمع الذى نشأوا فيه.. وكتبوا بصدق.

ثم هناك تقسيم أعم للأدب.. التقسيم الذى لا يستطيع أحد من المتحذلقين أن يقاومه : أدب جيد وأدب ردىء.. فن أو لا فن والأدب الجيد يقرأ.. والردىء لا يقرأ.. والفن يعيش.. واللافن يموت.

عن الزنوج

جلست مع سيدة زنجية من ترينيداد.

الشفاه الغليظة.. والأنف الأفطس.. والجبهة الضيقة.. والرأس الصغير.. والشعر الأكرت

☐ ورغم ذلك فإنها جميلة.. جمال خصب ملتهب كأرض خط الاستواء.. جمال يطن فى أذنيك كحفيف مزارع قصب السكر ويأخذك إلى دنيا غامضة كأنك فى حلبة لصيد الوحوش.. ويملأ عينيك منها بلون بشرتها فكأنك تنظر إلى قدح مليء بالقهوة الساخنة اللذيذة تكاد من فرط اغرائه أن تمد شفتيك وتأخذ منه شفطة.

إن ترينيداد جزيرة صغيرة من جزر الهند الغربية تقع وسط البحر بين الأمريكتين الشمالية والجنوبية.. وهى مستعمرة بريطانية تزرع السكر والكاكاو والبن ويعتصر فيها الروم وهو نوع من الخمر كأنه اللهب الساخن.. وعدد سكانها لا يزيد على نصف مليون يضمون بينهم مجموعة عجيبة من

المغامرين الانجليز والفرنسيين والأسبانيين والهنود والزنوج.

والزنوج هناك هم أتعس الطبقات ومن بينهم السيدة التى جمعتنى بها احدى ليالى القاهرة.

وتقول الأنسكلوبديا إن جزيرة ترينيداد تبدو من بعيد كأنها صخرية جرداء ولكنك لا تكاد تجتاز حاجز الصخور حتى تجد نفسك فى الجنة.. تماما كالسيدة التى عرفتها فلا تكاد تجتاز بعينيك الحاجز الجاف الذى ترسمه الشفتان الغليظتان والأنف الأفطس والشعر الأكرت حتى تجد نفسك فى الجنة.. جنة الفن.

إن كل عصب فيها يلتقط الجمال أينما كان حتى لو لم تره العين وكل خلجة من خلجاتها كأنها رادار يلتقط الأنغام من حولها ويؤثر بها فى كيانها كله.. إنها تسمع صوت عجلات الترام فترتبك خطواتها مع ارتباك الأنغام الصدئة التى تخرج من تحت العجلات.. وتسمع صوت النسيم مع الأغصان فى شارع الجزيرة فترق وتتهافت كأنها تستجدى النسيم أن يتلاعب بغصنها وتسمع الموسيقى فترقص ـ حتى ولو كانت جالسة ـ مادامت الموسيقى راقصة وتبكى إذا كانت الموسيقى باكية وتضحك إذا كانت الموسيقى ضاحكة.. ثم تخلو إلى نفسها فتنقر بأصابعها نقرات خفيفة فوق المائدة وتغنى أغنية حزينة من بلدها مطلعها :

إنى جالسة على شاطىء المحيط لأنى تعيسة لا أملك ما يكفى لأعود إلى بلدى فى ترينيداد .

وتستمر فى أغنيتها على وقع نقرات أصابعها كأنها تعيش فى حلم بعيد ترويه بدموعها ثم تصمت قليلا.. وفجأة تضرب

المائدة ضـربات عنيفة سـريعة وتغنـى كأنها تصـرخ بابا لو..
وهى أغنيـة أخـرى من ترينيـداد تروى عــذاب الزنوج تحت
ضربات السياط.

إن هذه الأغـانى ـ أغانى الزنوج فى تـرينيداد ـ اكـتسـحت
أمريكا كلـها.. اكتـسحت البيض لا الزنوج فـحسب وكل فـتاة
بيضاء هناك تغنى كليسوبلوز وبابا لو وورومبا كيرو.. الخ.

وكل فتاة بيـضاء ترقص رقصات الزنوج السامبـا والمامبو
والووجى.. الخ.

وليس فى أمريكا فن إلا فن الزنوج.

ولا تصدر أمريكا من الفنون إلى العالم كله إلا فن الزنوج.

لماذا ؟

لأن الزنوج فى أمــريكا هم وحـدهـم ـ باسـتـثنـاء الهنود
الحمـر ـ الذين لهم شخصـية معـينة مميزة احتـفظوا بها منذ
سرقهم تجـار الرقيق من وسط الغابة وجاهدوا فى الاحـتفاظ
بها وسط بحور العذاب التى خاضـوها حتى اليوم ولم تستطع
كل القوى التى اجتمعت عليهم أن تفـقدهـم هذه الشخصية حتى
المسيحيـة التى أمرهم أسيادهم باعتناقهـا لم تستطع أن تتغلب
على شخصيتهم الأصلية فهم يقرأون الانجيل فيصـابون بهوس
كانه هوس رجل الغـابة ويسمعون التـراتيل الدينية المسيـحية
فتـضج أجـسادهم من تأثيـرها حتى تتلوى ويصـبحـون فى
حركاتهم كأنهم عبدة النار يقذفون إليها بضحية جديدة.

أمـا باقى سكان أمـريكـا الذين وفـدوا إليـهـا من انجلتـرا
وفرنسا وألمانيـا وهولندا.. الخ.. فقد فقـدوا شـخصيـتهم الذاتية

بمجرد اجتماعهم بعضهم ببعض . لم يعد الانجليزى انجليزيا ولم يعد الفرنسى فرنسيا ولم يعد الألمانى ألمانيا.. إنما أصبحوا جميعا يكونون شيئا جديدا اسمه أمريكا لم تتكون شخصيته بعد.. شيئا يحاول أصحابه جاهدين أن يوجدوا له فنا خاصا قائما بذاته وحضارة قائمة بذاتها وهم فى سبيل ذلك يصممون مثلا على ارتداء القمصان المشجرة لأنه ليس هناك شعب آخر بلغ من قلة الذوق الفنى إلى حد ارتدائها.

وإلى أن يفلح سكان أمريكا فى إيجاد شخصية مميزة لهم ـ وسيفلحون على مر السنين ـ ستظل أمريكا خاضعة لفن الزنوج وموسيقى الزنوج ورقصات الزنوج.. لأن الفن هو تعبير عن شخصية وليس فى أمريكا اليوم شخصية قومية أقوى من شخصية الزنوج بحيث تستطيع أن تتغلب عليها.

إنى أحنى الرأس للشفاه الغليظة والأنوف الفطساء والشعر الأكرت.. لأنى أحترم الفن الذى يعبر عن شخصية أصيلة.. حتى ولو كانت شخصية الزنوج.

الحرية مجموعة من الواجبات
يطالب بها المجتمع

إن أى طريق تسير فيه ستجد نفسك مضطرا إلى أن تتنازل عن جزء كبير من حريتك وجزء كبير من حقوقك الفردية.

وكلما اخترت الطريق الأصوب أو الطريق الأكثر صلاحية للرقى ببلدك وجدت نفسك مضطرا لأن تتنازل عن جزء كبير من حريتك وجزء كبير من حقوقك.

لم تعد الحرية هى حرية الفرد.

إنما هى حرية المجموع.

ولم تعد الحرية هى مجموعة من الحقوق تطالب بها لنفسك.

بل أصبحت مجموعة من الواجبات يطالب بها المجتمع.

ولا فرق - بناء على هذه النظرية - بين وضعك منذ آلاف السنين عندما كان يحكم الدولة فرد واحد وبين وضعك فى العالم الحديث إذا وجدت نفسك فى دولة شيوعية مثلا التى يعتبرها أصحابها أرقى النظم السياسية والاقتصادية وأكثرها تقدما.

فأنت تفـقد الجزء الأكـبر من حريتك الشـخصية وحـقوقك الفردية فى كلتا الحالتين تفـقدها إذا كان يحكمك حاكم اقطاعى فردى وتفقدها إذا عشت فى ظل نظام شيوعى تقدمى.

ولكن الفرق الوحـيد - وهو فـرق كبيـر - هو أنك فى الحالة الأولى تتنازل عن حـريتك وعـن حقـوقك لصـالح فـرد واحـد لا يمـثل إلا نفـسـه وفى الحـالة الثـانيـة تـتنازل عن حـريتك وحقوقك فى سبيل المجموع الذى أنت فرد فيه.

وحول هذا المعنى دارت مـعركة البـشرية منذ بدء الخليـقة.. فـبعـد أن كـانت السلطة فى يد فـرد يستـغلهـا لصـالح نفسـه ويغتصبها بقدر قوته.. أى بعد أن كان كل فرد يستطيع أن يكون حكومـة قائمة بـذاتها لها كـافة السلطـات ولا تمثل إلا نفسـها.. أصبـحت الحكومة تمثل العـائلة.. ثم أصبـحت تمثل القبـيلة.. ثم اصبحت تمثل طبقة الأقلية الإقطاعية أو الرأسمالية.. ثم أصبحت تمثل الأغلبية - أى المجموع.

وتبـعا لذلـك أصبح الأفـراد يتنازلون عن جـزء كـبيـر من حرياتهم لا تحت ضـغط القوة ولا تحت ضغط طغيـان الحاكم الفرد بل لاقتناعهم بأن الحكومة التى يتنازلون لها عن حقوقهم هى حكومـة تمثل المجـمـوع وتعـمل لخـير المجـمـوع وحـرية المجموع.

أقـول هذا الكلام لأنك يجب أن تقـتنع به إذا أردت أن تكون اشـتـراكـيـا أو على الأقل إذا أردت أن تفـهم معنى مـبـادىء الاشتراكية.

فالاشـتراكية ليست مبدأ عـاطفيا يتـرك لك الحرية فى أن تعـيش كمـا تشاء وتكسب كـمـا تشاء بشـرط أن تعطف على

الفقراء.. بالعكس فإن الاشتراكية ـ كما قلت فى مرة سابقة ـ لا تعطف على الفقراء ولا تحقد على الأغنياء. بل هى تكره الفقر ولا تشفق عليه إنما تقضى عليه لأنها تعتبره مرضا خطيرا يصيب الأمة كلها.

فإذا تبرعت بنصف مالك للفقراء أو وزعت أرضك ـ من تلقاء نفسك ـ على الفلاحين أو دعوت خدمك للجلوس معك على مائدة واحدة.. ثم اعتبرت نفسك بعد ذلك اشتراكيا فأنت مخطىء.

إن الاشتراكية تكره الإحسان وترفضه وتعارضه.. لأنه يجرح شعور الفقراء وينمى الكبرياء الخبيثة فى صدور الأغنياء ثم إنه يترك الفقر على حالته.. إن الإحسان أو الجمعيات الخيرية هى وسيلة أشبه بمعالجة السرطان بأقراص الأسبرين.

ثم من يدرك إنك لو أعطيت نصف مالك لفقير يستغله لمصلحة المجموع أو حتى لمصلحة نفسه.. ربما يعثر على هذا المال على موائد الخمر أو القمار أو استهلكه فى تدخين الحشيش أو تزوج به أربع نساء.. كما حدث خلال الحرب عندما ارتفعت أجور العمال..

ومن يدريك أن الفلاح الذى ستهبه أرضك يستطيع استغلالها ومن أين له رأس المال الذى يشترى به البذور والبهائم والسماد.

ثم من يدريك أن الخدم يفضلون أن يجلسوا معك على مائدة واحدة.. وربما كانوا يستثقلون دمك وربما كان جلوسك معهم ـ بالنسبة لهم ـ نوعا من العقاب يتحملونه رغم أنوفهم

فى سبيل الأجر الذى تدفعه لهم.

إن الإشتراكية لا تقوم على العاطفة ولا على الإحسان ولا تترك لك حرية الخيار.

إنها تقوم على سلسلة ضخمة متشعبة من القوانين تفرضها الدولة وتضطر للخضوع لها ما دامت الدولة تمثل المجموع وما دامت الاشتراكية هى إرادة المجموع.. ولن تستطيع فى هذه الحالة أن تدعى أنك محسن كبير أو فاعل خير.. لأنك ستكون مضطرا رغم أنفك وبحكم القانون إلى الإحسان للمجموع كله.. فإذا عصيت وقعت تحت طائلة القانون وإذا تماديت فى عصيانك اتهمت بمحاولة قلب نظام الحكم.

وهذه القوانين الاشتراكية ستأخذ منك جزءا كبيرا من حريتك ومن حقوقك الشخصية.. وستتنازل أنت عن هذا الجزء راضيا كريما مادمت مؤمنا بالاشتراكية وما دمت مؤمنا بأن واجب الدولة أن تعمل لخير المجموع لا لخير الأفراد.

إنك مثلا - فى ظل هذه القوانين - لا تستطيع أن تكون مليونيرا ولا تستطيع أيضا أن تكون فقيرا.. حتى لو كنت غاوى فقر.

ولن تستطيع مثلا - أيضا - أن ترسل ابنك ليتعلم فى انجلترا أو فرنسا إلا إذا رأت الدولة أن ابنك قد ظهر عليه من علامات العبقرية ما يؤهله لإتمام تعليمه فى انجلترا ليعود فى خدمة المجموع.

وهى - كما قلت - قوانين متشعبة لن تقتصر على الناحية الاقتصادية بل ستمتد إلى أدق شئونك الخاصة.. ستمتد إلى الصحافة.. فإن الصحافة اليوم - فى أغلب بلاد العالم - تمثل

مبدأ واحدا هو الرأسمالية لأنك لا تستطيع أن تصدر صحيفة إلا إذا كنت صاحب رأسمال ضخم وستخصص جريدتك بالطبع لخدمة مصالحك ولن تسمح لى مثلا بأن أكتب فيها هذه السطور التى أكتبها الآن لأنى أدعو إلى الاشتراكية التي تتعارض مع مصالحك.

لذلك فإن الدولة الاشتراكية ستتدخل فى شئون الصحافة بفرض عدة قوانين بحيث ينخفض ثمن الورق فاستطيع أن أبيع لك روز اليوسف بقرش صاغ بدلا من ثلاثة قروش حتى تصل الدعوة الاشتراكية إلى أكبر عدد من القراء أو قد تؤمم المطابع فأستطيع أن أصدر جريدة يومية دون حاجة إلى شراء مطبعة تكلفنى مائة الف جنيه أو دون حاجة إلى أن أدفع أجرا مغالى فيه يعجزنى عن إصدار الجريدة.. وليس معنى ذلك أنى شخصيا فى هذه الحالة ـ سأكسب من إصدار الصحيفة بحيث أصبح فى خلال عدة سنوات رأسماليا آخر فإن الدولة الاشتراكية ستستولى على الجزء الأكبر من أرباح الجريدة عن طريق الضرائب لتستغله لصالح المجموع وتحقق به المساواة بين الأفراد.. وستقل أرباحى كثيرا ـ فى ظل الاشتراكية ـ عما هى عليه الآن حتى لو أصبحت دار روز اليوسف تصدر عشر صحف ومجلات.

ومن هذا تفهم لماذا تحارب الصحف الكبرى ـ فى جميع أنحاء العالم ـ الاشتراكية وتتهم أنصارها بأنهم شيوعيون ومخربون وهدامون.

وقس على الصحف جميع وسائل النشاط الاجتماعى.. الإذاعة.. المدارس.. المساجد.. المصانع.. الخ.

وأقرب مثل لتشعب القوانين الاشتراكية بحيث تشمل جميع نواحي الحياة هو ما حدث عند إعلان مشروع الإصلاح الزراعي.. فإن الدولة لم تكتف بإصدار قانون واحد يحدد الملكية وينظم توزيع الأراضي على الفلاحين بل أعقبت ذلك بعدة قوانين كثيرة تنظم الإيجارات وتنظم الجمعيات التعاونية وتنظم توزيع الحبوب عن طريق بنك التسليف وتنظم عمليات بيع المحصول وتنظم إرشاد الفلاح إلى الوسائل الزراعية وإلى طرق رفع مستواه الثقافي والصحي.. الخ.

ولكن ما هو الهدف الأخير من كل هذه القوانين الاشتراكية؟

الهدف : هو المساواة.

المساواة الكاملة .

والذى يعتقد أن الاشتراكية هى ما يسمونه تكافؤ الفرص أى أن نعطى لكل فرد الفرصة لأن يكون مليونيرا مثلا.. ثم هو وشطارته.. الذى يعتقد هذا الاعتقاد ليس اشتراكيا إنما هو مضلل يريد أن يضحك على الناس بتعبير لا معنى له.

فإن الاشتراكية تقوم على المساواة بمعنى المساواة الحقيقية البسيطة والفرص لن تتكافأ أمام الأفراد إلا إذا كان هؤلاء الأفراد متساوين أولا فى رأس المال وفى الدخل.

ثم إذا أعطيناك الفرصة لتكون مليونيرا فمعنى ذلك أننا حرمنا عشرات أو آلافا غيرك من أن يكونوا من أصحاب الملايين لأنك لا تستطيع أن تزيد مالك إلا إذا أخذت هذه الزيادة من جيب غيرك سواء أخذته بطرق مشروعة أو غير مشروعة.

وكل ما تسمح به الاشتراكية من فروق بين الأفراد هو أن يتحركوا بين حد أدنى للدخل وحد أقصى.. أى أن يكون الحد

الأدنى لك ثلاثين جنيهـا في الشهر مثلا ويكون الحد الأقصى ٥٠٠ جنيـه ـ مثـلا أيضـا ـ فإذا قل دخلك عن ثـلاثين جنيهـا نتيجـة انقطاعك عن العمل عوضتك الدولة في صـورة خدمات تقدمـها لك.. وإذا زاد دخلك على ٥٠٠ جنيـه أخذت الدولة هذه الزيادة في صورة ضـرائب وأعادتها إلى المجمـوع في صورة خدمات.

وهذه هي أكثر صور الاشتراكية تساهلا.

ولكن كيف تتحقق هذه المساواة؟

إننا ردا علـى هذه التـسـاؤل سـنضطر إلى التـحـدث في الاقـتصـاد السـيـاسي.. وقد كـرهت دائمـا كلمـة الاقـتصـاد وخـصـوصـا كـلمة اقـتـصـاد سـيـاسي إلى أن علمت أن هذا الاقتـصاد السـيـاسي ليس سـوى صورة مكبرة للطريـقة التي تدبر بها زوجـتك وزوجتي مصروف البـيت.. كل ما هناك أن الحكومـة ـ في الاقتـصـاد السيـاسي ـ هي التي تقـوم بدور الزوجة.

بقي أن تعرف كيف تستطيع الحكومة أن تكون زوجة ذكية مـدبرة تحقق السـعـادة والمساواة بين جـمـيع أفراد العـائلة.. العائلة المصرية.

[illegible]

إننا نردد عدة شعارات دون أن يكون لها معنى محدود فى أذهاننا.. الحرية.. الرخاء.. الشخصية المستقلة.. القومية العربية.. الخ.. كلها شعارات نؤمن بها.. ونبنى بها حاضرنا ومستقبلنا دون أن نحدد معناها.. وعدم تحديد معان لهذه الشعارات يجعلها تقع فى أيد ملوثة تستطيع أن تضللنا بها، وتستعملها ضدنا.

إن أمريكا تعد العالم بالحرية.. ولكن الحرية التى نؤمن بها غير الحرية التى تدعو إليها أمريكا.

وأمريكا تعد العالم بالرخاء.. ولكن الرخاء الذى نسعى إليه غير الرخاء الذى تسعى به إلينا أمريكا.

وقد سبق أن نشرت روز اليوسف عدة أبحاث عن الحرية وأتمنى لو يشاركنى زملائى مرة أخرى فى تحديد معنى «الرخاء».

إن بيننا من يعتقد أن الرخاء هو أن يتضاعف عدد أصحاب

الملايين المصريين وأن يباح السفر إلى الخارج.. وأن نستورد البارفان من باريس والقماش الصوف من انجلترا واللبان والسيارات من أمريكا.

ليس هذا هو الرخاء.. إنه منتهى الفقر.. الرخاء لا يتحقق بازدياد أصحاب الملايين بل يتحقق بارتفاع الدخل الفردى لمجموع الشعب.. دخل الفلاح والعامل الصغير والتاجر والموظف.. ولا يتحقق الرخاء بإباحة السفر إلى الخارج لعدد من الأفراد القادرين ، بل يتحقق عندما يستطيع كل فرد فى مصر أن يسافر إلى الاسكندرية أو إلى رأس البر.. وليس من علامات الرخاء أن نستورد البارفان من باريس بل علاماته أن نصنع البارفان والسيارات والقماش الصوف فى مصر.

الرخاء ليس معناه أن يكون بيننا أغنياء بل معناه أن نكون أمة غنية.

وقد ذهب تاجر كبير من تجار السجاجيد يشكو للرئيس جمال عبدالناصر كساد تجارته.. إنه لا يجد المشترين للسجاد الإيرانى والبخارى والشنواه.. وهو يعتقد أن الحالة الاقتصادية زفت.

ونصحه الرئيس بألا يعتمد فى تجارته على نفس الطبقة التى كان يعتمد عليها قبل الثورة.. طبقة الاقطاعيين الذين كانوا يدفعون الألف جنيه فى سجادة لا تزيد مساحتها على متر طولا ونصف متر عرضا.. وأن يحاول أن يبيع السجاد للشعب وأن يكون بالثمن الذى يتحمله الرجل العادى.

واقتنع التاجر بالنصيحة، واتجه بتجارته اتجاها جديدا.. اتجه إلى عشرات الألوف من الناس بعد أن كان يعتمد على

أفراد معـدودين من الأثرياء.. فافتتح مصنعـا للسجاد المحلى.. سـجاد يـصنع فى مـصر من خـامـة مـصرية بأيـدى عمـال مصريين.. وبدأ يبيع للألوف.. فربح وزاد ربحـه عما كان عليه قبل الثورة.. واقتنع بأن الحالة الاقتصادية عال.

وهذا هو مظهر من مظاهر الرخاء.

وسيكتـمل الرخاء عندما يكون عندنا من المصـانع ما يكفى لاستيـعاب الأيدى العاملة بحيث لا يكون بيننـا عاطل.. وعندما تنشىء من المدارس مـا يكفى الناس كلهم بحـيث لا يكون بيننا جاهل.. وعندمـا نبنى من المستشـفيات مـا يكفى المرضى كلهم حتى لا يكون بيننا مريض.

ولن يتحـقق هذا الرخاء إلا بعـد فتـرة حرمان طـويل.. بعد تقتير على أنفسنا لنسخو على مشروعاتنا الجديدة.

والذين يؤمنون بالحرمان هم الذين يبشرون بالرخاء.

الممثلة والكاتب

كانت فاتن حمامة تحدثني عن عمارتها الجديدة التى تبنيها فى مصر الجديدة وسألتها .. بلا حسد :

– لماذا تستطيع الممثلة أن تبنى من أرباحها ، ولا يستطيع الكاتب أن يبنى ولو كوخا. إننا لم نسمع عن كاتب واحد بنى عمارة من الكتابة مهما بلغ نجاحه فى حين أن معظم الممثلات الناجحات أصبحن صاحبات عمارات .

وقالت فاتن :

– إن الممثلة لا تعيش لفنها طويلا .. إنها كالوردة تذبل سريعا .. بضع سنوات ثم تصبح خردة لا تصلح للظهور على الشاشة وهى لذلك تستحق أجرا كبيرا بحيث تجمع فى هذه السنوات القليلة ما يكفيها العمر كله .. أما الكاتب فهو يظل يكتب طول العمر ويظل يربح من وراء فنه طول العمر .. ولو جمعت ما يربحه الكاتب فى عمره الطويل لكان أضعاف

ما تربحه الممثلة فى عمرها القصير .

ولم أقر فاتن على رأيها ..

إن الممثلة الفنانة لا تذبل أبدا .. وقد بلغت الممثلة الأمريكية بتى ديفيز الخامسة والستين من عمرها ولا تزال نجمة لامعة تمثل أدوار الشابات .. وفاتن لن تذبل لأنها لا تعتمد فى أداء أدوارها على جمالها ولا على فتنتها إنما تعتمد على فنها والفن لا يشيخ .. إن الفن شباب دائم .. وبعد ثلاثين عاما سنرى فاتن على الشاشة كما نراها اليوم وربما تؤدى نفس الأدوار .. أدوار الفتيات .. وقد كانت سارة برنارد فى الأربعين من عمرها وهى تؤدى على المسرح دورها فى مسرحية اليتيمتين .. دور صبية صغيرة .

والممثلة التى تذبل هى الممثلة التى تجتذب جمهورها بجمالها وإغراء فتنتها لا بفنها ! .. وهذه تذبل سريعا لا بحكم السن بل بحكم الملل .. إن الجمهور يمل الجميلات سريعا .

وكذلك الكاتب .. نفس الوضع فالكاتب الذى يجتذب جمهوره بالمنطق الجميل يختفى سريعا ويمله قراؤه .. أما الكاتب الفنان الذى يعتمد على الفكرة ويستطيع أن يعكس تطور المجتمع على صفحة نفسه ثم يصور مشاكله بقلمه .. هذا الكاتب لا يذبل أبدا إنما يظل يكتب طول عمره ويجتذب إليه الأجيال جيلا بعد جيل .

ولم تقتنع برأيى .. ربما لمنع الحسد عن عمارتها .

أنا وزوجتي

لم يكن يعتقد أن فى حياته اليومية العادية كل هذه المشاكل .. إلى أن سافرت زوجته إلى المصيف وتركته وحده فى القاهرة .

إن اختيار البدلة والكرافتة والقميص يستغرق أكثر من عشر دقائق .. والرد على السؤال البسيط نأكل إيه النهارده يستغرق من تفكيره ربع ساعة .. ومحاسبة الطباخ نصف ساعة .. و .. و.. واكتشف أنه نسى أن يرسل ثيابه الداخلية إلى الغسيل فخرج وهو يلبس بدلته على اللحم واكتشف أنه لم يرسل قمصانه إلى المكوجى فاضطر أن يلبس قميصه ثلاثة أيام حتى أصبح القميص فى لون جلده الأسمر .. ثم اختفت جواربه لا يدرى أين وفوجىء بأن أنبوبة معجون الأسنان قد فرغت وأن ليس عنده أمواس حلاقة واضطربت حياته فى بيته واضطربت حياته فى عمله

وعندما عادت زوجته انحنى فى خشوع يقبل يدها .. فلم يكن يدرى أنها مهمة فى حياته إلى هذا الحد .

النزاع بين الحب

الفتــاة الطمـوح لا تســتـطيع أن تحب .. إن طموحـها يغلف عواطفـها وأنوثتها حـتى لا تعود تراهمـا أو تحس بهمـا .. وكلما اشـتد طمـوحهـا بعدت عن عواطفها وأنوثتها .

وقد روت لي قصتها .. قصــة فتاة في السادسة عشرة من عمرها أحبت .. وكـان يمكن أن تسعد بحبها .. ولـكن طموحها غلف هذا الحب بغـلاف سـميك فلم تعـد تحس به وظنت أنهـا تستطيع أن تـستغني عنه .. وسـارت في الطريق الطويل الذى اختارته لنفسها .. الطريق الذى لا ينتهي .. ولم يعد الرجال في حيـاتها سوى درجـات سلم تصعد عـليه وبعضــهم غذاء لابد منه.. إلى أن وصلت .. أو تعبت من كثرة الصــعود فاستراحت على إحدى القمم .. واسـترخى طموحها وبدأ الغـلاف السميك ينزاح عن عواطفها .. وعادت تحس بالحب .. نفس الرجل الذى أحبته وهي في السادسة عشرة .. وبدأت تتساءل : هل أخطأت عندما ضــحت به في سبيل طموحــها .. وبدأت تحس بالندم .. تحس أنها ضيعت عمـرها في سبيل أوهام .. إن كل ما وصلت

إليه أوهام .. الشهرة والمال والنجاح .. كلها أوهام .. إن الحقيقة الوحيدة في حياتها قد ضيعتها .. الحقيقة الوحيدة في الحياة كلها هي الحب .

وخرجت تبحث عنه . .نفس الفتى الذي ضيعته .. وجدته في الثامنة والثلاثين من عمره .. قويا يافعا لا يزال في مرح صباه .

وتقدمت إليه في خطى مرتجفة وعيناها معلقتان بوجهه الأسمر .

ونظر إليها وكأنما يتذكر شيئا ثم قال :

- ياه .. مالك عجزت كده.. اللى يشوفك يقول عليك أكبر منى .

وأحست كأنه طعنها .. إنها فعلا تبدو عجوزا .. لقد امتص طموحها شبابها وكل حيويتها .. وتركها تفلا كالبرتقالة الممصوصة .

وقالت في صوت مرتعش :

- حدثنى عن نفسك .

ولم يحدثها وإنما جذبها من يديها كأنها طفلة وسار بها إلى بيته .. بيت متواضع ليس كبيتها . ليس فيه نجف كريستال ولا مقاعد أوبيسون .. ولكن فيه ضحك ومرح وطيبة وحب .. زوجته تضحك .. وأولاده يضحكون .. والمقاعد الخشبية تضحك .

وقال لزوجته وهو يقدمها إليها : ألا تعرفينها .. إنها حبى الأول .

وقالت زوجته في مرح : أهلا .. أنا حبه الأخير .

وعادت إلى قصرها الأنيق .. إلى الوحشة والفراغ .. والندم.

[illegible]

احتفل أسعد زوجين فى مصر بعيد زواجهما الثانى عشر .

ما سر هذه السعادة التى لم تنقطع يوما واحدا خلال اثنتى عشرة سنة ؟

السر .. هو عدم الفراغ .

الزوج يذهب إلى مكتبه فى الصباح .. ويعود إلى بيته فى الظهر ليقبل زوجته من وجنتيها ويبادلها كلمتين حلوين ثم يتناول غداءه ويستريح فى فراشه ، ثم يقود ليعودإلى مكتبه وينتهى منه فى الساعة التاسعة فيصحب زوجته إلى السينما أو يعود إلى بيته ليقرأ كتابا .. ثم يجد كل منهما نفسه بين ذراعى الآخر .

والزوجة تجد دائما ما تعمله فى بيتها .. لقد تزوجته وهو فقير فكانت تطبخ وتكنس وتغسل الصحون بنفسها .. ثم أصبح غنيا وأصبح لها طباخ وسفرجى ودادة .. ولكنها ـ رغم

ذلك ـ لا تزال تشرف على المطبخ بنفسها ولا تزال تجلس مع أولادها لتناولهم الطعام .. ولا تزال تستذكر معهم الدروس ولا تزال تعد ثياب زوجها بنفسها وتنتقيها له بذوقها . إنها دائما تجد ما تعمله فإذا انتهت من كل شيء جلست بجانب الزوج وهو يقرأ وبين يديها إبر التريكو .

ليس فى حياتهما فراغ يترك مجالا لمشكلة تثور بينهما أو يشيع فى نفس أحدهما الملل من الآخر أو الملل من البيت أو الملل من الحياة .

وليس فى حياتهما فراغ يفتح بابا لتدخل الأصدقاء فى شئونهما الخاصة .. فالأصدقاء بالنسبة لهما صورة جميلة .. والصورة تبدو أجمل إذا نظرت إليها من بعيد .

وليس في حياتهما فراغ يحتله الأهل وتستغله حماتها أو حماته فكل منهما يقدس أهله ويقدس ـ على الأخص أمه ـ والأشياء المقدسة توضع فوق الرؤوس ولا توضع على الأرض حتى لا تصطدم بها الأقدام .

وليس فى حياتهما فراغ يترك للزوجة وقتا لتفتش جيوب زوجها أو يترك للزوج وقتا ليحصى على الزوجة خروجها ودخولها إنما ازدحام الحياة حولهما جعل كلا منهما مضطرا لأن يثق فى الآخر وهو مطمئن إلى أن ثقته فى محلها .

إن الانتصار على الفراغ هو سر سعادتهما والفراغ هو العدو للأزواج والزوجات .

رياضـيـة روحيـة

إنى مـريض هذا الأسـبـوع .. وقـد بلغ عـدد الأدوية التى أمر لى الطبيب بها خمسة أدوية كلها بعـد الأكل .. وبلغ عدد أصناف الأكل التى سـمح لى بها صنفا واحدا .

إنى مريض وفى رأسى مطارق لا تـكف عن تعذيبى .. وفى أمـعائى ألم لا يرحـمنى .. ورغم ذلك فـإنى أكتب .. أكـتب عن الحب .. وأكتب عن المبـادىء السياسـية وعن الأدب .. و .. و .. وأنام فوق مكتبى فى الساعة الثالثة صباحا .

لماذا لا أستريح ؟

لا أدرى .. ولكنى كلمـا تعذبت اندفـعت إلى قلمى .. إنه كل مـا أملك من قـوة إنه سـلاحى الوحـيد .. أتحـدى به العـذاب وأتحدى به مصرانى الغليظ .

لا .. إنى لا أتحدى بل إنى أتوسل إلى المجهـول ليرحمنى .. أتوسل بتعـذيب نفسى فوق الورق .. إن هذا التـعذيب نوع من

الرياضة النفسية أو نوع من اليوجا التي يتوسل بها الهنود للسيطرة على أجسادهم .

إن العمل عبادة .. وأنا أعبد الله في عملي .. لعله ينصرني على صداعي ..

ادعوا لي ..

النظارة السوداء

بعض الناشرين وكثير من القراء يلحون في إصدار طبعة ثانية من قصتي النظارة السوداء .

وقرأت القصة في الأسبوع الماضي ولم أكن قد قرأتها منذ كتبتها أي منذ أربع سنوات .. وأحسست وأنا بين الصفحات أني شاهدت صورتي وأنا بالبنطلون القصير .

إن شعراتي البيض ليس لها أثر في السطور والتجاعيد التي تحت عيني لا تبدو مع الكلمات .. لقد كنت في هذه القصة ـ ومنذ أربع سنوات فقط ـ شابا مندفعا جريئا .. يملي إرادته في بساطة وقوة دون أن يهمه شيء ودون أن يحسب حسابا لأحد ودون أن يشعر أنه مسئول عن تفسير إرادته .. إنه يلقي بآرائه كأنها أوامر فمن أطاع فأهلا وسهلا ومن تردد في طاعته فالويل له .

وأحسست أني أريد أن أكتب القصة من جديد .. أن أضع

فيها شعراتي البيض والتجاعيد التي تحت عيني وألبسها البنطلون الطويل .

إني مازلت مؤمنا بالمبادىء التي تقوم عليها هذه القصة وما زلت مؤمنا بالهدف الذي تسعى إليه والصراحة التي كتبت بها .. ولكني أشعر أني أستطيع أن أصل بها إلى أعماق أبعد وأستطيع أن ألقي عليها أضواء أكثر وأستطيع أن أفتح فيها نوافذ جديدة لذهن القارىء .

هل أفعل ؟

إني لو فعلت لأصبحت قصة جديدة غير القصة التي يريد الناشرون والقراء إعادة طبعها .. وإن لم أفعل لبدت شخصيتي الحالية التي يراها القارىء في قصصي الجديدة ناقصة مبتورة .. وقد وقع في هذه الحيرة جميع الكتاب وأذكر أني قرأت مقدمة لطبعة ثانية من كتاب لكاتب لا أذكره الآن - لعله برتراند رسل أو هـ . د. لورنس - أبدى فيها هذه الحيرة ثم نشر صورته عندما أصدر الطبعة الأولى وصورته عند إصدار الطبعة الثانية وقال : إن الفرق بين الطبعتين هو الفرق بين الصورتين .

ورغم ذلك فإني أفضل أن أترك القصة كما هي فإني مازلت أحب شبابي الذي ذهب منذ أربع سنوات فقط .. وبالمناسبة إن امنيتي في الحياة أن أصبح كاتب قصة هل أستطيع أن أحقق امنيتي .. إني أعلم أن الطريق لا يزال طويلا وشاقا .

الشموع المطفأة

أول يناير ..

إن عيد ميلاده يوافق يوم الاحتفال بعيد رأس السنة وقد تعود أن يحتفل كل عام بيوم ميلاده وكان يحاول دائما أن يقنع نفسه بأنه سعيد الحظ إذ يولد في يوم يحتفل العالم كله به .

وكان يحاول دائما أن يبدو سعيدا في ذلك اليوم وأن يضحك وأن يضع قلبه على كف يده ليقدمه لكل من يعبر حياته .

ولكنه لم يستطع أبدا أن يكون سعيدا ، وخصوصا في ذلك اليوم .

إنه يشعر في كل مرة يحتفل فيها بعيد ميلاده إنه نادم على ما فات وخائف مما هو آت .. وهو يشعر دائما أنه فشل وسيفشل وإن كان الناس يعتقدون ويؤكدون أنه نجح وسينجح .

إنه فاشل إذا قاس أعماله بما يريد أن يعمل .. وناجح إذا

قاس أعمــاله بما يريد منه الناس أن يعمل ، وهو إذ يقلب أوراق حياته تبـدو له أيامه كلها سوداء لا يرى منهـا نورا يهديه إلى الطريق الذى أتى منه أو الطريق الذى سيذهب فيه .

ولكن عن أى طريق يبحث ؟ وأى هدف يريد أن يصل إليه ؟ هل يريد أن يصبح كـاتبا ؟ هل يريد أن يصبح مشـهورا ؟ هل يريد أن يصبح غنيا ؟ هل يريد أن يصبح سياسيا ؟

إنه لا يدرى .. لا يدرى أين يذهب .. ولا من أين أتى .. لقـد وجد نفـسه يكتب دون أن يتعـمد أن يكتب ، وقد أمـسك بقلمه لأول مرة وهو فى الرابعة من عمـره وخط خطوطا لا معنى لها على ورقة بيضـاء ، فسأله والده باسما « ما هذا الذى تخطه »؟

فأجاب فى سذاجة الأطفال « إنها أعواد من القش » !!

ونظر الوالد إلى الخطوط التى خطها الابن فوجـدها حقيقة تمثل أعواد القش .. فابتسم فرحا فخورا بابنه الذى استطاع أن يرسم « القش » فى مثل هذه السن !

ولكن الابن عندمـا رسم خـطوط القش لم يكن يقـصـد أن يرسـمها وإنمـا أجرى قلمـه على الورق بلا فكر وبلا هدف ثم نظر ليرى النتيجة فإذا بها أعواد من القش .

وهو من يومـها يجـرى قلمـه على الورق ويتـرك له العنان ليكتب ويكتب وليس له من دافع إلا هواجس نـفسه ونبـضات قلبه ، ولو أغمض عـينيه وهو يكتب لكانت النتيجة واحـدة فهو لا يكتب بعينيه ولا برأسه إنما يكتب بأعصابه وروحه وبعد أن ينتهى من الكتابة ينظر إلى الورقة ليرى مـاذا كتب ويفاجأ كما يفاجـأ أى قارىء عادى وكأنه ليس صـاحب القلم الذى كتب .. والناس تعـجب بمـا يكتب كـمـا أعـجب به والده عندمـا رسم أعواد القش وهو فى الرابعة من عمره ، وقد تطور هذا الإعجاب

حتى وصل به إلى مرتبة الشهرة ، وأصبح الناس يعتبرونه كاتبا بين الكتاب واصبحوا يثقون به ويدعونه صاحب رسالة وينتظرونه كل أسبوع على صفحات الجريدة التى يكتب فيها ، ولكنه هو نفسه لا يعجب بنفسه ولا يحس بالشهرة التى وصل إليها ، لأنه لا يعتبر نفسه كاتبا بل يعتبر نفسه طفلا بلا عقل ، يجرى قلمه على الورق بلا إرادة وبلا وعى ولتكن النتيجة ما تكون.

وهو يخشى ثقة الناس به لأنه يعتقد أن هذه الثقة ليست قائمة على أسس فى نفسه يستطيع أن يتحكم فيها بل هى قائمة على ذلك الإلهام الذى يدفع بقلمه على الورق دون وعى منه وهو إلهام لا يستطيع أن يتحكم فيه ولا أن يحركه عندما يريد ، بل هو نوع من النبضات العصبية التى تثور فى نفسه ثم تسرى إلى يده فترتفع من تلقاء نفسها لتمسك بالقلم وتكتب ، ولذلك فهو يخشى أن ينتظره أحد ليقرأ ما يكتب لأن هذا الإلهام لا يتقيد بمواعيد صدور الجريدة ولا بمواعيد المطبعة، بل هو يتحرك فى أوقات لا ينتظرها هو نفسه ، وقد لا يتحرك أبدا ، قد يمر أسبوع ويده لا تريد أن تمتد إلى القلم ، فى حين أنه يجب أن يكتب لأن المطبعة تنتظر .. وهنا تمر عليه أسوأ أيام حياته فهو لا يستطيع أن يكتب عندما يريد بل إن أصدقاءه الخصوصيين يعلمون عنه أنه لا يعرف من قواعد اللغة العربية ما يكفى لأن يضع كلمات بجانب بعضها تتكون منها جملة مفيدة .. إنه فى هذه الحالة يجن وقد يبكى ، وأحيانا يرق إلهامه لدموعه فيدفع قلمه ليكتب ، وأحيانا يعصاه إلهامه فيتخفى عن الناس وعن أصحاب جريدته معتذرا بمرض أو بحدث.

فهو إذن ليس كاتبا فى نظر نفسه وإن كان كاتبا فى نظر الناس !!

هل يريد أن يكون سياسيا ؟

إنه لم يشعر بنفسه سياسيا أبدا ، إنه يرى أحيانا فى السياسة معميات يصعب عليه فهمها ويضل فيها عقله ، وهو ينظر إلى السياسيين وكأنهم قوم غرباء عنه ليس لهم عقليته ولا روحه ، وحينما يجلس بينهم يحس أنهم يتكلمون لغة لا يفهمها بل ويمقتها .. ولكنه إن أنكر على نفسه صفة السياسى فلا يستطيع أن ينكر أنه وطنى وهو يفهم الوطنية كما يفهمها رجل الشارع .. يفهمها واضحة جلية مستقيمة كحد السيف ، فلا يحاول أن يدس بوطنيته فى سواد الدبلوماسية ولا فى همسات الدوائر العليا .

وهذا الفهم للوطنية لا يحتاج إلى ذكاء نادر ولا إلى موهبة شاذة ، ولا إلى فكر خارق للعادة ، بل هو فهم بسيط لا يتميز به عن أى رجل ساذج من الشعب ، بل إن الفلاح فى حقله قد يقيس الوطنية بأقوال العمدة ، والعامل فى مصنعه قد يقيسها بما يطالب به من تحسين حاله .. أما هو فوظيفته مجردة لا تكلفه إلا أن يحس ، فهو يطالب بالجلاء - مثلا - بنفس الطريقة التى يحاول بها كلب مقيد أن يحطم قيده ولو أحس كل أفراد الشعب بأنهم كلاب مقيدون لتم الجلاء منذ عشرات السنين !!

ورغم هذه البساطة أو السذاجة التى يفكر بها ويكتب بها فى شئون وطنه فإن الناس قد اعتبروه سياسيا واعتبره البعض سياسيا داهية !! .. فحملوا ألفاظه أكثر مما كان يعنيه وأخذوا حملاته التى لا يدفعه إليها إلا وميض أعصابه ونور قلبه ، أخذوها مآخذ شتى ليست وطنية بل سياسية !.. وخرج

من ذلك بمبدأ آمن به وهو : « كلما كنت بسيطا بدوت معقدا فى نظر الناس ويوم أن تكون معقدا ستبدو بسيطا » !!

هل يريد أن يكون غنيا ؟

لقد صار فعلا غنيا لو أن الغنى يقاس بالمال ، فقد كان دخله منذ عامين خمسة وعشرين جنيها فى الشهر ، ودخله فى شهر ديسمبر الحالى وصل إلى مائتين وخمسين جنيها ـ بلا مبالغة ـ ولكنه منذ عامين كان يصرف ثلاثين جنيها فى الشهر ، وهو اليوم يصرف ثلاثمائة جنيه ، فهو غارق فى الدين فى كلتا الحالتين ، وهو فى كلتا الحالتين ليس سعيدا .. وكلما زاد داخله كلفه بحثه عن السعادة أكثر .

إنه إذن كاتب وليس بكاتب ، مشهور وليس بمشهور سياسى وليس بسياسى ، غنى وليس بغنى ، وهذا هو سر روحه التائهة ، وقلبه القلق ، وفكره الشارد ، والسؤال الذى بحث عنه هو :

– هل أنا لا أقدر نفسى حق قدرها ، أم أن الناس يقدروننى أكثر من قدرى ؟!

إن سيدة واحدة تشاركه البحث عن هذا السؤال ، وهى لا تبحث عنه بين الناس بل تبحث عنه فى نفسه ، وكلما ظنت أنها وصلت إلى غور نفسه بدت لها فيه أغوار جديدة ، إنه يخشى عليها أن تتوه معه ، وهى تخشى عليه أن يتوه منها !!

إنها السيدة الوحيدة التى تحتفل معه بعيد ميلاده ، فتصمت معه طول الليل لتتركه يحاسب نفسه ، فإذا ما انتهى من الحساب وهو عسير ، بكى وضمها إلى صدره ثم حمد الله !!

احـــتـراف

أعلنت الـثـورة على نفـسـى ابتـــداء من يوم الثلاثـاء الماضى السـاعـة الثالثـة صباحـا ، وكنت ساعتها جالسـا إلى مكتبى أكتب مقالا عن الموقف السـياسى ، وفـجـأة توقفت ورفـعت رأسى عن الورق فإذا بى أواجه نفسى لأول مرة منذ أسـابيع قضيتها أنا وقلمى بعيدين عن نفسى ، وإذا بسـلسلة اتهامات تنهال على كان أشنعها وأخطرها اتهـامى بأنى فى طريقى لأن أكون كاتبا محترفا .

وما كادت تتضح لى حقيقة هذه التهمة حتى سقط القلم من بين أصابعى وامتدت يدى إلى الورق تمزقه وكأنها تمزق أوراق تحقيق فى جناية تلبس .

هل أنا حقيقة كاتب محترف ؟

ولكن كيف لا أكون مـحترفا ، وأنا أكتـب الموقف السياسى فى ثلاث جـرائد أسـبوعـيـة ، وأكـتب المقـال الافتـتـاحى فى

جـريدتين أسبـوعيـتين ، وأراجع مـقالات فى ثلاث جـرائد .. وأعطى رءوس مواضيع لتوزع أسبوعـيا على خمسة وعشرين محررا يعملون فى جريدتين أسبوعيتين ، ومسئول عن الأخبار الكبيرة فى ثلاث جرائد إحداها يومية (والأخبار الكبيرة تعبير ابتكره إدجار جلاد بك ويقصد به خبر استقالة الوزارة أو خبر ترقية عباس أفندى الأشمونى إلى الدرجة السابعة !!) .

كيف لا أكون محترفا بعد ذلك ؟ بل كيف لا أكون تاجرا من تجـار اللب والحـمص ؟ بل لمـاذا لا أسـمى نفـسى : إحـسـان الصاوى محمد .. وأنتهى !! واسمى نفسى : إحسان عبد القادر المازنى .. وعلى رحمة الله !!

إنى مـحـترف ونص .. مـحـتـرف جدا .. وبدأت الـسـيـاط القاسية تنهال على نفـسى التى تعيش بين جنبى ، سياط الفن الذى لم يكلفنى شيئـا بل ولدت به وعشت فى كنفه ورغم ذلك خنته ، وسيرت قلمى لأرضى غرورى قبل أن أرضيه .

نعم .. كان السبب هو الغرور ، فقد كنت أقيس نـجاحى بعدد أصـحـاب الصـحف الكبـيـرة الذين يتـقـدمـون إلى فى تودد ويغـروننى بالعمل مـعهم بكل مـا يملكون من وسـائـل الإغراء وكنت أقبل عروضـهم فى سبيل إرضـاء هذا الغـرور ، محاولا إقناع نفسى بأنى بذلك أفتح لقلمى ميادين جديدة .

وقد فـتحت عدة مـيـادين جديدة ، وكانت النـتيجة أن عـجز قلمى عن أن يـنتـصـر نصـرا حـاسـمـا فـى واحـد من هـذه الميادين ، وأصبح يكتب ليـصد قوات العدو لا ليقـضى عليها .. أو بمعنى آخر أصـبح يكتب ليرضـى القراء لا ليرضـى نـفسه ..

وغالبا ما يرضى القراء على ما يستخفه الكاتب !!

وانتهت ثورتى على نفسى بأن بدأت اختصر من ميادين العمل وبدأت أعود ثانية لأحس بقلمى عندما أحتضنه بين أصابعى وأرقص به على الورق فى بهو الفن الهادىء المحرم الدخول إليه على الجماهير !

لقد عادت إلى نفسى التى فرت منى خلال الأسابيع الماضية.. عادت إلى وقد غفرت لى .. عادت إلى بعد أن طهرت نفسى من الاحتراف .. عادت لتستريح فى صدرى .. صدر الفنان .. ولأنعم بها لا أريد منها ولا تريد منى إلا أن نعيش لنكتب ، لا أن نكتب لنعيش !

رقم الإيداع٧١٣٣/٩٩
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0822 - 9